روبنسون كروزو

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

دار العلم للملايين
بيروت

روبنسون كروزو

هذه الرواية

- قصة عالمية خالدة ترجمت الى جميع اللغات مرات ومرات .
- انها قصة رجل قضى خمسة وثلاثين عاماً في جزيرة مهجورة لم يفارقه خلالها الأمل في العودة الى الوطن والبقاء على قيد الحياة . . .
- كيف عاش روبنسون كروزو وما هي الأهوال التي واجهها في تلك الجزيرة المهجورة و كيف قدرت له النجاة ؟
- ذلك ما ستقرأه في شوق في هذا الكتاب المثير . .



المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

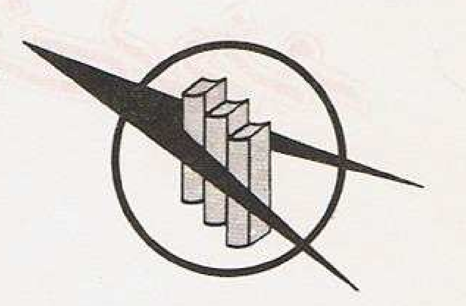
روبنسون كروزو

تأليف
دانيال ديفو

تعريب وتلخيص
أكرم الرافعي

دار العلم للملايين
ص.ب ١٠٨٥ - بيروت
تلفون: ٢٢٤٥٠٢-٢٢٠٢٧-٢٩١٠

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى ١٩٧٢
الطبعة العاشرة
حزيران (يونيو) ١٩٨٦

تصدير

لا تزال المكتبة العربية مفتقرة حتى اليوم الى كتب مساعدة يطالعها فتياننا وفتياتنا في اوقات الفراغ فتقوّم بيانهم العربي، وتوسّع آفاق ثقافتهم، وتكون نافذة يطلّون منها على التراث العالمي كلـه.

من اجل ذلك اصدرت دارنا في العام الماضي سلسلة «الناجحون» فلقيت رواجاً زادنا يقيناً بحاجة المكتبة العربية الى مثل هذه السلاسل. والواقع ان هذا النجاح هو الذي يشجّعنا اليوم على اصدار هذه السلسلة الجديدة، سلسلة «المكتبة العالمية للفتيان والفتيات» لتكون زاداً ثقافياً للناشئة من طلابنا وطالباتنا في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة.

وقد عهدنا بأمر هذه السلسلة الى نخبة من الاقلام المضيئة فلخّصت نصوصها عن الأصول المطوّلة بأسلوب سليم مُشرقٍ وبذلنا نحن غاية الجهد في اخراج حلقاتها بحلّة قشيبة تقرّب التراث العالمي الى الناشئة الحبيبة .

ويهمنا ان نشير ، في نهاية المطاف ، الى اننا عَمَدْنا الى شكل الكلمات شكلاً كاملاً حيناً وجزئياً حيناً آخر ، رغبة منا في تقوية السليقة العربية عند مطالعي هذه السلسلة ومطالعاتها وبذلك تجمع « المكتبة العالمية » بين دفّتيها المتعةَ والفائدة اللغوية معاً .

والله من وراء القصد .

دار العلم للملايين

١ . حياة البحر

وُلِدْتُ عامَ ١٦٣٢ في مدينة « يورك » حيث استقرّ والدي معتزِلاً العملَ بعد أن حصلَ على ممتلكاتٍ كبيرةٍ عن طريق التجارة .

وكان لي شقيقان اثنان ، أحدُهما مقدَّمٌ (ليوتنان كولونيل) في فرقة مشاةٍ يقودُها الزعيم (الكولونيل) لوكارت الشهير ؛ وقد قُتِل في معركة دنكرك ضدّ الاسبان . أما الثاني فلم أعرفْ قطُّ شيئاً عنه ؛ وجهلي بمصيرِه يتساوى مع جَهْل أبوَيَّ بمصيري أنا .

ولما كنتُ الولدَ الثالثَ في الأسرة ، ولم أتعلَّمْ أيَّ مهنةٍ أوجِّهُ نحوَها نشاطي ، فقد بدأتُ ، في سِنٍّ مبكّرةٍ ، أديرُ في رأسي مختلفَ المشاريع . وكان والدي ، الذي تقدَّمَ في السن ، قد زوّدني بثقافة محترَمةٍ ، سواءٌ بإعطائي دروساً بنفسه أو بإرسالي إلى إحدى المدارسِ العامّةِ الراقية . وكان يرْجو من وراء ذلك أن يوجِّهني نحوَ دراسةِ القانون ؛ إلا أنّ وِجْهتي كانت مختلفةً

عن ذلك كلَّ الاختلاف . فقد كانت الرغبةُ في ركوب البحر هي التي تسيْطر على تفكيري . كانت تلك النزعةُ تجعلني أقفُ متصلباً في وَجْهِ إرادة والدي ، وتُصِمُّ أذنيّ عن توسُّلات والدتي كأنّ قدَراً خفياً يقود خطايَ نحو حياةٍ من البؤس والألم.

وفي ذات صباحٍ دعاني والدي إلى حُجْرَتِه ، التي كان يلازمها لإصابته « بالذَّبحة »، وتحدَّث إليّ طويلاً في هذا الموضوع . تساءل عن السبب الذي يَدْفعني إلى ترك المنزلِ الأبويّ ، الذي أجدُ فيه العنايةَ والرعايةَ ، وتركِ مَوْطني الذي ينتظرُني فيه مستقبلٌ باسمٌ سعيد . وحثّني ، بأشدِّ العبارات تأثيراً، على ألاّ أسيرَ بطيشٍ نحو متاعبَ جنَّبَني إياها انتمائي إلى أُسْرةٍ ثريَّة مَرْموقة . وبيّن لي أنني لست في حاجة إلى الجريِ وراء لقمةِ العيْش، وأنه سيبْذل قصارى جهْدِه من أجل أن تكونَ لي مِهْنةٌ محترمة ، وأنه لا يريدُ المشاركةَ في تدميري بالموافقة على سَفري . وختمَ حديثَهُ قائلاً إنّ عليّ أن أعتبرَ بما حَلَّ بشقيقي البِكْرِ الذي لم يَستمِعْ إلى تحذيره ، بل أصرَّ على الذَّهابِ للمشاركة في حرب الأراضي المنخفضة (هولندا) . وقال إنه سيظَلُّ يُصلّي من أجلي ؛ ولكنَّ الله لن يباركَ هذه الخطوةَ إن أقدَمْتُ عليها ، ولا بدَّ أنني سأندَمُ على عدَمِ الاستماعِ إلى نصائحه ، ويَوْمَها لن أجِدَ أحداً إلى جانبي .

لقد كان هذا الحديثُ، في الحقيقة، نُبوءةً بكلِّ ما في الكلمة

من معنى ، وإن لم يكن ، هو ، يتوقَّعُ أن يتحقَّق ما حذَّرني منه . وقد رأيت الدموعَ تجري من عينَيْه بغزارة ، وخاصةً عندما ذَكرَ مقْتلَ أخي . وعندما قال إنني سأندمُ ولا أجدُ أحداً إلى جانبي ، بلَغَ به التأثرُ مبلغاً لم يستطِعْ معَهُ أن يواصِلَ الكلام .

ولقد تأثَّرْتُ يَوْمَها تأثُّراً عميقاً، حتى إنني قرَّرْتُ أن أصرِفَ تفكيري عن السَّفر ، وأبقَى إلى جانبِ والديّ. ولكن هذا القرار لم يلبثْ أن تبَخَّرَ ، مع الأسف. وعزَمْتُ بيني وبين نفسي على أن أتركَ المنزلَ دونَ إذْنٍ من والدي حتى أتفادى تأنيبَهُ وملاحظاتِه . غير أنني لم أنفِّذْ ما عزَمْتُ عليه في الحال . وذاتَ يومٍ ، وقد رأيتُ والدتي طيبةَ المزاج ، أخذْتُها على انفراد ورُحْتُ أتحدَّث إليها عما يجولُ في خاطري . قلتُ لها إنّ رغبتي في رؤية العالَم شيءٌ لا يقاوَمُ ، وإنه مِنَ الأفضلِ أن يأذَنَ لي والدي بالسَّفر بدَلَ أن أذهَبَ دونَ إذْنٍ منه . ورجَوْتُ منها أن تفكِّرَ في الأمر مليّاً ، وألاّ تنسَى أنّني بلغتُ الثامنةَ عَشْرَةَ من عمري ، وأنه لم يعُدْ في إمكاني أن أكونَ كاتباً عند أحد القضاة . وحتى لو قبلْتُ بمثل هذه الوظيفةِ ، فلَنْ ألبثَ أن أهربَ وأسافر . وطلبْتُ منها أن تتحدَّثَ إلى والدي في هذا الشأن ، وتطلبَ لِيَ الإذنَ

منه بالسفر ؛ ووعدتها ، إذا لم ترق لي حياة البحر ، بأن
أعود وأصلح كل شيء ، وأعوض عما فاتني بمضاعفة
نشاطي واهتمامي .

وما إن سمعت والدتي هذا الكلام حتى استشاطت غضباً ،
وأعلنت لي أنه لا فائدة من التحدث إلى والدي في هذا الموضوع .
وقالت إنها لا تتصور كيف أنني لا أزال أفكر هذا التفكير بعد
الحديث الذي جرى بيني وبين والدي ، وبالرغم من التعابير
الرقيقة والمقنعة التي استخدمها والدي لإعادتي إلى الصواب .
وعلى أية حال فإن كنت مصراً على السير في طريق الضياع
فلأفعل ، ولكنها لن تبدي موافقتها على الاطلاق ،
ولن تدع أحداً يقول إنها وافقت على شيء سبق لوالدي أن
رفضه .

ومع هذا فقد علمت ، فيما بعد ، أنها نقلت ما قلته إلى
والدي ، وأن والدي قال لها والألم يعتصر قلبه : « في
استطاعة هذا الولد أن يكون في غاية السعادة إن بقي في
المنزل ، ولكنه سيكون أبأس مخلوق إن رحل إلى البلاد
الأجنبية ؛ ولا يسعني أن أوافق على ما يطلب ! »

غير أني لم أغادر المنزل إلا بعد سنة من ذلك التاريخ . ولقد
أصررت على أن أصم أذني دون جميع العروض لاتخاذ

إحدى المهن . وكثيراً ما كنت أشكو أمام والدي ووالدتي ، من
تعنتهما واستمرارهما في معارضة تلك الرغبة التي كانت
تتملكني .

وذات يوم ذهبت إلى «هال» بطريق الصدفة . فقابلت هناك
أحد الرفاق ، وكان على أهبة السفر إلى لندن بحراً على سفينة
يملكها والده . فدعاني إلى مرافقته . وزيادة في تشجيعه أعلن
لي أنني لن أتكلف شيئاً . وعلى هذا لم أستشر والدي ولا
والدتي ؛ بل لم أكلف نفسي عناء إخبارهما بذلك ، مجرد
إخبار . وتركت الأمور تجري كما تشاء الصدف ، دون أن
أفكر في العواقب ، وذهبت إلى تلك السفينة المتوجهة إلى لندن .
وكان ذلك اليوم ، وهو أشأم يوم في حياتي ، هو الأول من
شهر أيلول عام ١٦٥١ .

لا أعتقد أن شاباً مغامراً بدأت مصائبه مبكرة كما بدأت
مصائبي ، واستمرت بقدر ما استمرت هذه في حياتي . فما إن
خرجت السفينة من نهر « همبر » حتى بدأت الريح تبرد وبدأ
البحر ينتفخ . ولما كنت لم أسافر بعد في البحر ، فقد استولى
الدوار والرعب على جسدي وروحي ، وامتلأت نفسي
بضيق لا أستطيع له وصفاً . ورحت ، منذ تلك اللحظة أفكر
في العدالة الإلهية التي تعاقب في الولد الأحمق العاق . وأخذت

تمرُّ في خاطري جميعُ النصائح التي ردَّدها أبواي على مِسْمَعِي
وصارَ ضميري يؤنِّبني على احتقاري لتلك الدروس الثمينة .

واشتدَّتِ العاصفةُ وازدادَ البحرُ اضْطِراباً . وكان ذلكَ
كافياً لزعزعة نوتيّ مبتدىء ، رغم أنه لم يكن شيئاً مذكوراً
بالمقارنةِ مع الأهوالِ التي قابلْتُها بعدَ ذلك . كنت أتوقَّع في
كل لحظة أن تبتلِعَني الأمواج ؛ وعندما كانتِ السفينةُ تَهبطُ بنا
كنتُ أتخيَّلُ أنها ستلامسُ القاعَ ، وأنَّها لن تعودَ إلى السَّطحِ
مرَّةً أخرى . وفي غمرةِ ذلكَ الشعورِ المستولي عليَّ ، عاهَدْتُ
نفسي عدَّةَ مرات بأنني ، إذا أُنقِذْتُ هذه المرة ، لن أعود
إلى ركوب البحر بَعْدَ ذلك ، وسأذْهَبُ تواً إلى المنزل العائليّ
لكي أعيشَ بجانب والدي مستفيداً من نصائحه ، مطيعاً
لأوامره .

ولكنَّ هذا العهدَ ، بيني وبين نفسي ، لم يَدُمْ إلا فترةَ
العاصفة . ففي اليوم التالي هدأتِ الرياحُ وسَكَنَ البحرُ ، وبدأتُ
أنا أتعَوَّد وَضْعِيَ الجديد، وإن كنتُ قد ظَلَلْتُ رصيناً طولَ
النهار ، لأنني كنتُ لا أزالُ متضايقاً من دُوار البحر . ولكن
ما إنْ أقبلَ المساء حتى انجلى الجوُّ تماماً ، وسادَ الهدوء . وغابت
الشمسُ في أُفقٍ واضحٍ ، لا تعكِّر صفاءَهُ غيمةٌ واحدةٌ ،
وقضينا ليلةً رائعة . وكان اليومُ التالي مماثلاً ، فقد أشرَقَت
الشمسُ في سماءٍ صافية الأديم ، وراحتْ تُرْسِلُ أشعَّتَها

الضاحكةَ على صَفْحة المياه المتلألئةِ التي تَهبُّ عليها أنسامٌ
رَخِيَّةٌ منعِشة ؛ وكان كلُّ ذلكَ يَبْسطُ أمامَ ناظرِيَّ مشهداً
من أمتع المشاهد .

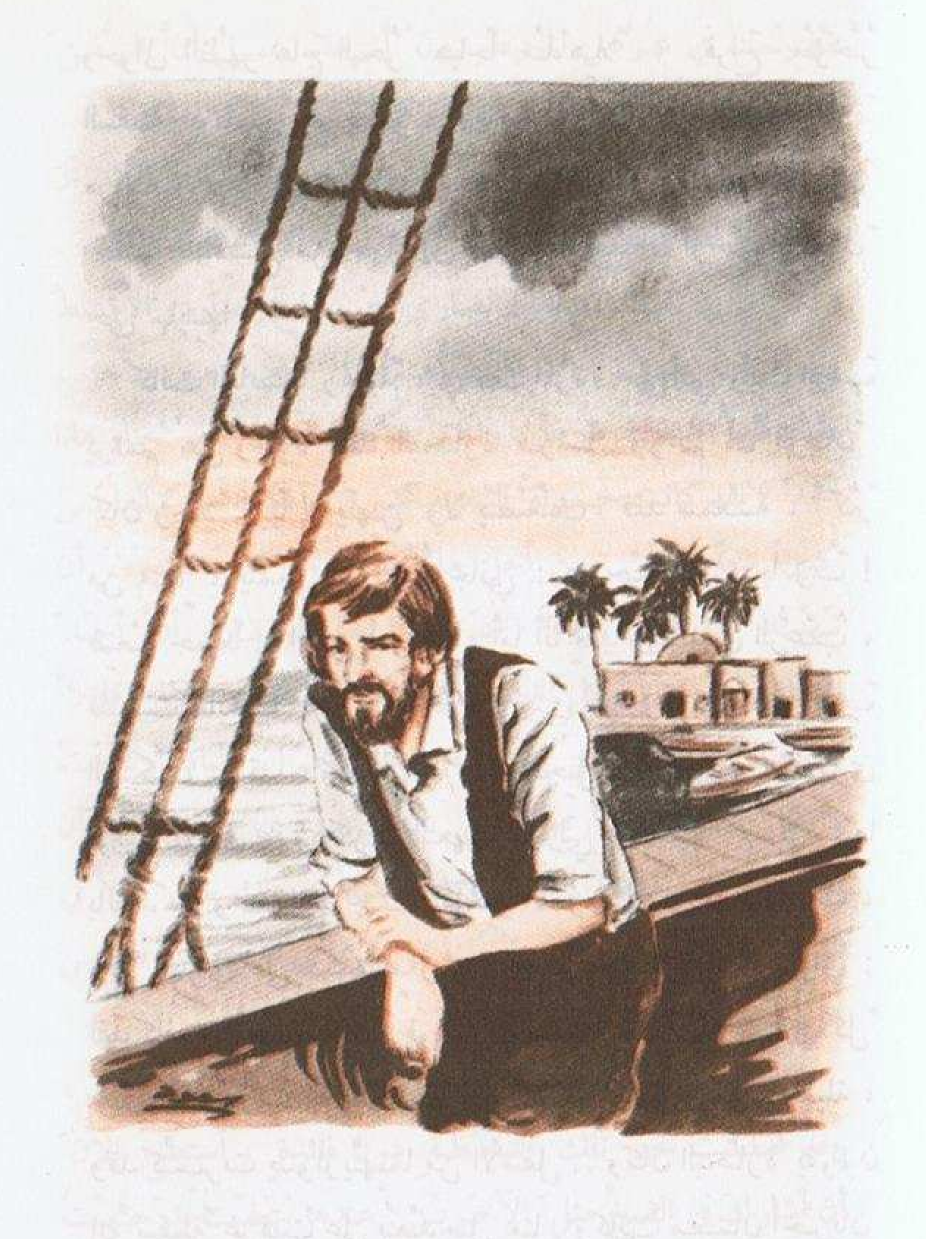
وكنتُ قد قضيْتُ اللَّيْلَ هادئاً ، وقدْ زالَ عني الدُّوار ،
وهأنذا أمدُّ بصري على صفحة المحيط الذي كان بالأمس
هائجاً وأصبح اليومَ في غاية الهدوء . وحتى لا أظلَّ متمسِّكاً
بالعَهْد الذي قطعتُه على نفسي في اليوم السابق ، أقبَلَ عليَّ
صاحبي ، وربَّتَ كَتِفي قائلاً :

« هيه ، أيُّها الرفيق .. أراهِنُ أنَّكَ كنتَ خائفاً أمسِ ! ..
معَ هذا لم يكنْ ما حدَثَ سوى هبَّةِ ريح ! »

— «كيف؟ أتسمِّي ذلكَ هبَّةَ ريح ؟.. إنَّها عاصفةٌ هوجاء!»

— «عاصفة!.. دَعْكَ من هذا!.. إنَّها لم تكن شيئاً.... في
الواقع أنَّ في استطاعةِ المرء أن يَهزَأ بالرياحِ ما دام يمتلكُ
سفينةً جيِّدةً تجري وسطَ المحيط . أتريدُ الحقيقةَ أيُّها الرفيق ؟
لقد خِفْتَ لأنَّكَ ما زِلْتَ مبتدئاً .. هيَّا بنا نتناولْ كأساً من
« البَنْش » .. أترى إلى هذا الجوِّ الرائع ؟! »

ومنذُ تلكَ اللَّحظةِ بدأتُ نمطَ الحياةِ التي كان يحياها رجالُ
البحر . شربْتُ البَنْشَ ، وانتَشَيْتُ .. وفي تلكَ الليلةِ التي
قضيناها في العَرْبَدَةِ نسيْتُ التَّوْبَةَ التي أعلَنْتُها ، ونَسيتُ



روبنسون يفكّر ..

كلّ ما صَمّمْتُ عليه من أجل المستقبل . فكما أنّ الهدوء تلا العاصفةَ ، كذلك تبَخّرَ العَهدُ الذي قطعتُه على نفسي أثناء المِحْنَة ، بعد أن ذهبَتْ مخاوفي وهدأتْ نفسي . وخلالَ الأيام الخمْسةِ أو الستّةِ التاليةِ عكفْتُ على الشّرب والسّلوى فانتصرْتُ على ضميري انتصاراً تاماً .

في اليوم السادس وصَلْنا إلى مَرْسَى «يارموث» . الواقعُ أننا لم نقطَعْ مسافةً طويلةً ؛ لأنّ الرياح ظلّت خفيفةً منذ أن هدأتِ العاصفة . ودام انتظارُنا في ذلك المَرْسَى نحوَ سبعة أو ثمانية أيام لأنّ الرياحَ ظلّتْ معاكسةً . ورأينا عِدّةَ سُفُنٍ آتية من «نيوكاسل» ترْسو هناك، في انتظار الرياحِ المواتيةِ لتتّجهِ مِثْلَنا نحوَ نهر «التاميز» .

على أيّ حال، كان في استطاعتنا ألاّ نَدَعَ الوقتَ يطولُ بنا في الانتظار، وأن نصلَ الى مَصَبِّ النهر بفضْلِ المدّ لولا أنّ الريحَ بدأتْ تشتدُّ حتى أصبحتْ في غايةِ العُنْفِ في اليوم الخامس . ومنْ حُسْنِ حظّنا أنّ المَرْسَى كان شبيهاً بميناء أمين ، وأننا ألقَيْنا المراسيَ على عُمْقٍ كافٍ ؛ لهذا لم يَهتَمّ بحارَتُنا بشيء ، بل قَضَوْا الوقْتَ في الراحةِ والمَرَح . إلا أن الريحَ ازدادتْ شِدّةً في صباحِ اليومِ الثامن فأمرَ البحارةُ بأن يُنزِلوا الأشرِعةَ المُربّعَة ، وأن يُثَبّتُوا كلّ شيء .

وحوالى الظُّهر هاجَ البحرُ هياجاً مُذْهِلاً ؛ فراحَ مُؤخَّرُ السفينة يغطسُ ثُمّ يطفو ، وفاضت المياهُ على الظهر عدّةَ مرات ، فأمرَ القائدُ بإسقاط المِرْساة الرئيسية ؛ ومَعَ ذلكَ ظللْنا نندفِعُ من جهةٍ إلى أخرى ، بعد أن أرخَيْنا الحبالَ حتى نهايتِها .

كانت العاصفةُ رهيبةً ، في تلك المرّة ؛ حتى أنني رأيتُ الرعبَ يرتسمُ على وجوه أشدِّ البحّارة مِراساً . ورغمَ أنَّ الرُّبّانَ كان رجلاً قوياً لا يَهِنُ ولا يَضْعُف ، فقد سمعتُه ، أكثرَ من مرةٍ ، يتمتمُ وهو يمرُّ بجانبي : « رَحمَتَك ، يا ربّ ! ضِعنا جميعاً .. انتهى أمرُنا ! » أما أنا فقد جمَّدَني الرُّعبُ ، فلبثْتُ قابعاً ، دونَ حراك ، في حجرتي الواقعة قربَ السُّكّان . وقد عاوَدَتْني ، وأنا خجِلٌ من نفسي ، ذكرى توبتي الأولى ، وذكرى التعهُّدات التي قطعتُها ثم دُسْتها بالقَدَم . وعندما خرجْتُ ، آخرَ الأمر ، لأرى ما يَحدُث ، وقعَ بصري على مَشهَدٍ رهيب لم أرَ مثلَه قطُّ في حياتي : لقد كانت الأمواجُ ترتفعُ فوقَنا كالجبال ثم تَسقطُ علينا في كل لحظة . ومرّتْ بقربنا سفينتانِ مشحونتان بأحمال ثقيلة ، وقد كُسِرت صواريهِما من الأسفل .. وكان البحّارةُ يقولون إنَّ سفينةً غرِقتْ على بُعْد ميلٍ منا . وكانتْ سفينتان أُخرَيان قد انفصلَتْ عنهما المراسي ودفعَتْهما الأمواجُ خارجَ المَرْسَى

تَهيمان في عُرْض المحيط دونَ أشرعة . على أنَّ السُّفنَ الخفيفةَ كانت أقلَّ معاناةً من غيرها .

في أواخر النهار طلب كبيرُ البحارة ومعاونُه من القائد أن يَسْمَحَ لهما بقَطْعِ الصاري الأمامي ، وإلاّ غرقت السفينة . ولكن ما إنْ قُطِعَ هذا الصاري حتى راحَ الصاري الأوسطُ يَضْطَربُ بعنف ، مما اضْطَرَّهم إلى قطعه هوَ الآخر ، فغدا ظهرُ السفينة فارغاً . ولكنْ ، هل انتهى الأمرُ عند هذا الحدّ ؟ لقد كانت حمولةُ السفينة كبيرةً ، فكان الجزءُ الغاطس كبيراً تبعاً لذلك .. من أجل هذا كان البحارةُ يَخْشَوْنَ أن تَهْبِطَ إلى القاع . ومما زادَ في فداحة الموقف ، أنَّ أحدَ البحارة ، وقد أُرْسِلَ للكَشْف في قاع السفينة ، صاح قائلاً إنَّ هناك خرْقاً يتدفَّقُ منه الماء . وقال آخرُ إنَّ المياهَ ارتفعَتْ داخِلَ السفينة إلى أربع أقدام . هنالك نُودِيَ على الجميع بأن يَنْشَطوا في ضخِّ الماء . وما إنْ سمعتُ ذلك حتى تولاّني الذهولُ ، إلى درجة أني وقعتُ عن سريري الذي كنتُ أجلِس على طرَفه .

وجاء بعضُ البحّارَة ليُخرجوني منَ الذُّهول قائلين إنني ، وقد ظلَلْتُ حتى تلكَ اللحْظَة دون فائدة ، أستطيعُ الآنَ أن أشاركَ في الضخِّ مثلَ الآخرين . عندها نهضْتُ وتوجّهتُ معَهم إلى حيث عمِلتُ بقوةٍ معَ الآخرين . وبينما نحنُ

منهمكونَ في هذه العمليّة ، كانتْ بعضُ السُّفن الخفيفة من
ناقلات الفحم تتْرُكُ المَرْسَى ، حيثُ تتعرَّضُ للخطر ،
وتَقْصدُ إلى عُرْض البحر . فكانتْ تمرُّ قريباً منا . لذلك أَمرَ
القائدُ باطلاق المِدْفَع ليُعْلِنَ لهذه السُّفُن أننا في خطر .
ولكنني لم أكُنْ أعلَمُ ماذا كانتْ تعني طَلْقَةُ المِدْفعِ تلك؛
فقد تبادَرَ إلى ذهني أن السفينةَ قد تحطَّمَتْ أو أنَّ حادثاً
رهيباً قد وَقَعَ ، فأُغمِيَ عليَّ . ولمَّا كنَّا في موقفٍ لا يفكِّر فيه
المرءُ إلا في مصيره هو ، فلم يأبَهوا لي .. كلُّ ما في الأمر أنَّ
بحاراً آخرَ أخذَ مكاني على المِضَخَّة وأزاحني بقَدَمِه ،
تاركاً إياي مُمَدَّداً على الأرض ، وفي ذِهنِه أنني فارقْتُ
الحياة .

عندما استعَدْتُ وَعيي كانوا لا يزالونَ يواصلونَ الضَّخَّ ، بينما
القائدُ مستمرٌّ في إطلاق مدافعِه طَلَباً للنَّجدة . وكانت إحدى
السُّفن الصغيرة تمرُّ على مَبْعدةٍ منا ؛ فجازَفَتْ بانزال فلوكة
استطاع رجالها ، بَعْدَ عناءٍ كبيرٍ ، أنْ يقتربوا منا معرِّضين
حياتَهمْ للخطر من أجلنا . فقَفَزْنا واحداً واحداً إلى فلوكتهم .
بالطبع لم يكنْ هناكَ أملٌ في الصُّعود إلى سفينتهم ؛ وقد أجمعَ
الكلُّ على أنَّ كلَّ ما يمكنُ عملهُ هو أن نترُكَ أنفسَنا نطفو
محاولينَ الاتجاهَ نحوَ البرِّ .

ولم يَمْضِ رُبْعُ ساعةٍ على ترْكِنا السفينةَ حتى رأيْناها

تَغُوصُ بما فيها . وكان الرجالُ يجذِّفونَ بكلِّ ما أُوتوا من
قوة ليُدركوا بنا الشاطىء . وكنّا ، كلّما ارتفعَتِ الفلوكةُ بنا
على رأسِ مَوْجةٍ ، نرى الناسَ يسرعونَ إلى الشاطىء لكي
يَمدُّوا إلينا يَدَ المعونةِ عندما نصِل . واستَطَعْنا ، بعْدَ
كثيرٍ من العناء ، أن نصِلَ ، وأن ننزِلَ جميعاً ، لحسْن حظِّنا .
ومن هناك توجَّهْنا إلى « يارموث » سَيْراً على الأقدام . وفي
« يارموث » عُومِلْنا معاملةً جِدَّ إنسانية ، سواء من قِبَلِ
العُمْدةِ الذي آوانا ، أو التجارِ وأصحابِ السُّفن الذين زوَّدُونا
بالمال .

وكان الوَضْعُ الطبيعيُّ ، بالنسبة إليَّ أنا ، أن أعودَ تَوّاً إلى «هال»
ولكنّني ، عندما رأيتُ جيبي مليئاً بالمال ، قرَّرْتُ أن أسافرَ برّاً
إلى لندن .

في أثناء الطريق، وبَعْدَ وصولي إلى لندن ظللْتُ أُعمِلُ الفكرَ
لاختيار الاتجاه المناسب : هل أعودُ إلى المنزل أم أواصل
رحلاتيَ البحرية ؟ لقد كانت العودةُ إلى البيت الأبوي هي الحلَّ
الأعقلَ بالطبع . ولكنْ .. كيف أستطيعُ أن أظهرَ أمام
الناس ؟! لا شكَّ أنني سأكونُ مَوْضِعَ هُزْءِ الأصدقاء
والجيران ! لهذا استبْعَدْتُ هذا الحلَّ نهائياً ، وقرَّرتُ السفرَ
على إحدى السفن المتوجهة إلى سواحل إفريقية ، – أو كما يقول
البحارة – إلى ساحل غينيا .

٢. أسر وهرب

من المؤسف حقاً أنني، في جميع هذه المغامرات لم أبحر بصفة بحار بحيث تسند إلي أعمال صعبة تكون لي بمثابة تدريب يجعل مني بحاراً بمعنى الكلمة، فأصبح ملازماً أو رئيس بحارة. ولكنني، لسوء حظي، كنت أختار الأسوأ! كان جيبي ملآن بالمال، لهذا ركبت السفينة مرتدياً ملابس السادة فلم يسند إلي أي عمل.

منذ اليوم الأول لوصولي إلى العاصمة تعرفت بأناس محترمين. أول شخص عرفته كان صاحب سفينة سبق له أن قام برحلة إلى ساحل غينيا، وقرر أن يقوم بالرحلة مرة أخرى. ولما سمع أنني أحب سفر البحر، عرض علي أن أرافقه، لأنه أعجب بشخصيتي وحديثي. وقال لي إنني سأتناول الطعام معه ولن أتحمل أي تكاليف، بل إن في إمكاني أن أنقل بعض البضائع، وأصيب منها ربحاً محترماً.

وسرعان ماقبلت عرض هذا الرجل الشهم، وجازفت بأربعين جنيهاً استرلينياً، اشتريت بها، نزولاً على نصيحته، بعض الخردوات والأدوات المنزلية. وأستطيع أن أقول إن هذه الرحلة كانت الرحلة الناجحة الوحيدة بين جميع الرحلات

التي قمت بها؛ وكل ذلك بفضل كرم هذا الصديق الجديد وإخلاصه. وكان من ضمن الفوائد العديدة، التي حصلت عليها من صحبته، أنه علمني قواعد البحرية، كما علمني كيف أحدد بدقة خط السفينة وكيف أضبط القلوع؛ بمعنى أن هذه الرحلة جعلت مني بحاراً وتاجراً في الوقت نفسه. فقد عدت منها وأنا أحمل خمسة أرطال وتسع أوقيات من قراضة الذهب، بعتها في لندن بنحو ثلاثمئة جنيه استرليني. هذا النجاح أوحى إلي بمشاريع كانت، فيما بعد، سبب خرابي.

مع الأسف توفي هذا الصديق الكريم والبحار الممتاز بعد أيام من عودتنا إلى لندن. ومع ذلك قررت القيام بالرحلة نفسها وعلى نفس السفينة، يقودها، في هذه المرة، المعاون السابق. لقد تركت لأرملة الفقيد مئتي جنيه، وحملت معي المئة المتبقية.

كانت هذه الرحلة أتعس رحلاتي. فبينما كنا في طريقنا إلى جزر كناريا فاجأتنا، فجر أحد الأيام، سفينة قرصنة تركية من مدينة سالي. فما إن رأيناها حتى رفعنا جميع القلوع وانطلقنا هاربين. ولكنها كانت أسرع منا، فقررنا الدخول في معركة معها. وكان معنا اثنا عشر مدفعاً، في حين أن القراصنة كانوا يملكون ثمانية عشر.

وأسفرت المعركة في النهاية عن استيلاء القراصنة على سفينتنا،

وأخذنا أسرى إلى «سالي». أما رجال السفينة فقد أرسلوا إلى داخل البلاد؛ وأما أنا فقد كنت من نصيب الربّان، الذي احتفظ بي لأنه رأى فيّ فتىً قوياً نشيطاً صالحاً لخدمته. وهكذا تحوّلت من حياة الحرّية إلى حياة العبودية، مما جعل نفسي تمتلىء باليأس.

على أنني كنت آمل أن يأخذني سيدي الجديد معه في رحلاته، ولا بدّ أن تقضي عليه، في يوم من الأيام، سفينة حربية إسبانية أو برتغالية، فأستعيد حريّتي. ولكنّ هذا الأمل تبخّر سريعاً، إذ أن القرصان، عندما أبحر، تركني في المنزل لأُعنى بحديقته وأؤدي الأعمال التي يؤدّيها العبيد في المنازل. ولما عاد أمرني بأن أبيت في حجرته بالسفينة لأقوم على حراستها.

ولما أصبحت على ظهر السفينة، لم يعد يشغل ذهني سوى التفكير في الهرب. ولكنّ جميع الخطط التي قلّبتها في مخيّلتي رأيت أنها غير معقولة إذا لم يكن بجانبي شخص أستطيع أن أطلعه على سريرة نفسي، وأستعين به على تحقيق أمنيّتي. وهكذا قضيت عامين في ظلّ العبودية.

خلال هذه المدّة وجدت فرصة أحيت في نفسي الأمل في النجاة. ذلك أنّ سيّدي كان يقضي فترة طويلة على الأرض بين الرحلة والرحلة، لأنه لم يكن يملك المال اللازم لتجهيز السفينة من أجل القيام برحلات متواصلة. وفي أثناء بقائه

على الأرض، كان كثيراً ما يخرج بالمركب الكبير لصيد السمك في مياه المرسى؛ فيأخذني وعبداً عربياً آخر لنقوم بالتجذيف. وكنت أبدي مهارة عظيمة في الصيد، مما جعله راضياً عني تمام الرضا، حتى أنه أرسلني عدّة مرات مع قريب له، يدعى اسماعيل، والعبد الشابّ الآخر، لأصطاد له بعض السمك.

وذات مرّة امتدّ الضباب حولنا فحجب عنّا البرّ، رغم أننا لم نكن أبعد من نصف فرسخ عنه، فأخذنا نجذف بكلّ قوّتنا، لنعود إلى الشاطىء. ولكن بدل أن نقترب منه ابتعدنا عنه، بحيث وجدنا أنفسنا في الصّباح على بعد فرسخين من اليابسة. هذا الحادث لفت نظر سيّدي إلى ضرورة تجهيز المركب بأدوات الرّصد اللازمة وبالمؤن الكافية. فكلّف نجّاره، وهو عبد انكليزي كذلك، ببناء حجرة في وسط المركب الذي زوّده بالأشرعة؛ ووضع في الحجرة خزانات مملوءة بالأغذية.

وقرّر يوماً أن يقوم، مع بعض أصدقائه، برحلة صيد بحريّة وبريّة. وكلّفني عشيّة الرحلة بنقل مؤن كثيرة إلى المركب، مع ثلاث بنادق وكمية وافرة من البارود والرّصاص. ورتّبت جميع هذه الأشياء، حسب أوامره، في المركب الذي نظّفته وأعددته إعداداً تاماً. وفي الصباح كنّا في

انتظار السيِّد أنا وإسماعيل والعبدُ الآخر . ولكنَّ سيِّدي جاء بمفرده ، لأنَّ أصدقاءه أجَّلوا رحلتَهم إلى فرصة أخرى . وأمرني بأن أصيدَ له كميةً من السمك وأحملَها إلى منزله فوراً ، لأنَّ ضيوفه سيتناولونَ الطعامَ على مائدته .

هذه الحادثةُ جعلتْني أخطِّطُ للاستيلاء على المركب . وهكذا رُحتُ أُعِدُّ العُدَّةَ ، لا لرحلة صيد ، بل لسفرةٍ طويلة . لم تكن في ذهني وجهةٌ مُعيَّنة ، فالمهمُّ أن أرحلَ وحسْب ، حتى أتخلَّصَ من هذه الحياة الذليلة .

قلتُ لإسماعيلَ إنَّ علينا ألا نأكلَ خبزَ سيِّدنا ، فلابدَّ من أن نحملَ معنا زادَنا الخاص . فوافقَ على رأيي وحملَ سلةً من البسكويت وثلاث جرار من الماء العذْب . وفي غياب العبد العربيّ أخذتُ أنا عدةَ زجاجاتِ خمرةٍ من قبو السيِّد وحملتُها إلى المركب ؛ كما نقلتُ كتلةً من شمع الاستضاءة تزنُ أكثرَ من خمسين رطلاً ، ورزمةً من خيوط القنَّب وفرَّاعةً ومطرقة . ونصبتُ فخاً آخرَ لاسماعيل : قلتُ له :

« هذه بنادقُ السيِّد .. فما قولُكَ لو أخذنا ذخيرةً نصيدُ بها شيئاً لنا ؟ » فاستحسنَ الفكرةَ وحملَ بعضَ البارود والخُرْدُق والرصاص .

وبعد هذه الاستعدادات خرجنا من المرفأ ، فلم يعترضنا حرَسُ القصر الذين كانوا هناك ، لأنهم كانوا يعرفون وجهتنا .

وقضينا وقتاً طويلاً دون أن نظفرَ بشيء ؛ ذلك أنني كنتُ كلَّما رأيتُ سمكةً تعلَقُ في صنارتي تركتُ الصنارة تحت الماء دون أن أسحبَها . وقلت لاسماعيل :

« إنك ترى أننا لا نصيدُ شيئاً .. وسيِّدنا رجلٌ صعْبٌ ، فعلينا أن نبتعدَ قليلاً عن هذ المكان ! »

فلم يشكَّ في حُسْنِ نيتي ؛ وتوجَّهَ إلى مُقدَّمِ المركَبِ لإعداد القلوع . أما أنا فكنتُ على الدَّفة . وبعدَ أن ابتعدْنا عن ذلك المكان نحوَ فرسخ ، سلَّمت الغلامَ مقبضَ الدَّفة ، وتحوَّلتُ إلى مقدَّم السفينةِ حيث انحنيتُ وراء إسماعيلَ مُوهِماً بأنني أفتِّشُ عن شيء من أجل أن نبدأ الصيْد . وفجأةً وكلمحِ بالبصر دفعتُه بشدة ، فغاصَ في البحر . ولكنه ما لبث أن صعدَ إلى السطح وراح يسبحُ كالسمكة ليدرك المركب . وكان يستجيرُ بي ، ويُقسم على أن يفعلَ كل ما أشير به عليه . وكان يتقدَّم بسرعةٍ في حين أن المركبَ كان بطيئاً بسبب معاكسة الرِّياح .. فما كان مني إلا أن أخذتُ بندقيةً ووجَّهتُها نحوَه قائلاً : « إسمعْ ، يا صديقي .. إنني لم أُصبْكَ بسوء ، كما أنني لا أنوي أن أفعلَ ذلك ، شريطةَ أن تفعلَ ما أطلبُه منك . إنكَ سبَّاحٌ ماهرٌ والبحرُ هادىء ، وفي استطاعتك أن تعودَ إلى الشاطىء بسهولة .. فلنفترقْ كصديقين .. أما إذا أصررْتَ على اللحاقِ بي فسأحطِّم رأسَك ، لأنني قررتُ

استعادةَ حريتي ! »

فلم يُجِبْ بشيء ، بل راح يَسْبح نحوَ الشاطئ . وما إنْ تخلَّصْتُ منه حتى عُدْتُ إلى العبد الصغير ، الذي كان يُدعى « كسوري » ، وقلت له : « لقد أصبحْنا الآن وَحْدَنا ، يا « كسوري » ، فإن أخلصْتَ لي عاملتُكَ أطيبَ معاملةٍ ، وعليك أن تُقْسِم على ذلك ، وإلاّ ألقيْتُكَ ، أنتَ الآخرَ ، في البحر ! »

فنظرَ الغلامُ إليّ بسذاجةٍ ورِقّةٍ وأقسمَ يمينَ الولاء . ورُحتُ أحاورُ الرياحَ حتى أوهمَ التركي ، الذي ما زال ظاهراً ، أنني أريدُ التوجّهَ نحوَ المضيق . ولكنْ ما إنْ هبطَ الليلُ حتى وجّهتُ مركبي نحو الجنوب غيرَ بعيدٍ عن الساحل . وكانت الرياحُ مواتيةً ، والبحرُ هادئاً ، فانطلقَ بنا المركبُ مسرعاً ، حتى إننا كنّا ، بعدَ ظهرِ اليومِ التالي ، على مسافة مئة وخمسين ميلاً من « سالي » ، ولم نرَ أيَّ سفينةٍ تتبعُنا ، فأيقنْتُ أننا اجتزْنا منطقةَ الخطر .

٣. في إفريقية والبرازيل

ظللْنا نجري خمسةَ أيامٍ كاملة ، خوفاً من أن يتبعونا . في نهاية هذه المدّةِ دارتِ الرياحُ نحوَ الجنوب ؛ فأيقنتُ

أنّه لو كانتْ هناكَ سفينةٌ تجري في أثرنا ، فلا بُدَّ أن تتوقّفَ الآنَ . فألقيْتُ المِرْساةَ عندَ الغروبِ على مقربةٍ من مصبِّ نهرٍ صغير . وقرّرْتُ أن أذهبَ سباحةً إلى الشاطئ . ولكنْ ما إنْ هبطَ الظلامُ حتى بدأتْ تنطلقُ أصواتُ الوحوشِ الضاريةِ بصورةٍ رهيبةٍ ، حتى إنّ « كسوري » راح يرتعدُ من الهلع .

في صباحِ اليومِ التالي اقتربْنا قدْرَ المُستطاعِ من الشاطئ لكي ننزلَ ونفتّشَ عن ماءٍ صالحٍ للشُّرب ، إذ لم يبقَ لدينا نقطةُ ماء .

وعثرْنا على الماء وملأْنا جرارَنا . واصطادَ « كسوري » أرنباً برياً ، فأكلْنا واسترحْنا ثم عُدْنا إلى مركبنا .

كنتُ أعلمُ ، نظراً لزيارتي هذهِ المنطقة من قبلُ ، أننا لسْنا بعيدَيْنِ عن جزُرِ كناريا وجزُرِ الرأسِ الأخضر . ولكنْ بما أنّه لم تكنْ معي أيُّ أداةٍ لمعرفةِ خطوطِ العرْض ، فلم أكنْ أعرفُ كيف أتّجه . لهذا كانَ أملي أنْ أسيرَ في محاذاةِ الشاطئ لأصلَ إلى ذلكَ المكانِ الذي يؤمُّه الانكليزُ من أجلِ التجارة ، لعلّي أعثرُ على سفينةٍ ترضى أن تستقبلَنا .

وخيّلَ إليَّ أكثرَ من مرة أنني أرى قمّةَ جزيرة « تينريف » ، وهي إحدى جزُر كناريا . وحاولْتُ مرّتيْن أن أتوجّهَ إلى عرْض البحر ، لأصلَ إلى هذهِ الجزُر ؛ وفي المرّتيْن

اضطُرِرْتُ إلى العَوْدَةِ بسبب معاكسةِ الرياحِ وضخامةِ الأمواجِ التي لا يستطيعُ أن يواجِهَها مَرْكَبٌ صغيرٌ كمَرْكبي.

وهكذا ظلَلْتُ ماضياً في خِطَّتي الأُولى بعدَمِ الابتعادِ عنِ الشاطىء.

وكُنَّا نَضْطَرُّ إلى النُّزولِ للتَزَوُّدِ بالماء. وذاتَ مرَّةٍ رَسَوْنا تحت رأسٍ مُرْتَفِعٍ؛ فإذا بـ «كسوري» الذي كان بصرُهُ، على ما يبدو، أحدَّ من بصري، يَدْعوني بصوتٍ منخفضٍ، ويقول لي أن نبتعِدَ عن ذلك المكان. فلما سألتُهُ عنِ السبَبِ، قال بِلُغَتِهِ الخاصة:

«أنت لا يرى وحش فظيع هناك؟»

فنظرتُ إلى حيثُ يشيرُ فرأيتُ، بالفعل، أسداً ضخماً للغاية يَرْقُدُ على شيْرٍ في ظل صخرة. قلت لـ «كسوري»:

«إنزِلْ إلى البر واقتله!»

فأجاب بخوف شديد:

«أنا يقتل هو؟ لا، لا.. هو يأكل أنا بلقمة!»

فسدَّدْتُ بُنْدُقيَّتي إلى رأس الأسدِ وأطلقْتُ عليه أوَّلَ طَلْقٍ. ولكنْ بما أنَّه كان يُغطّي وَجْهَهُ بإحدى قائمتيْهِ الأماميَّتَيْن، فقد أصابته الرصاصاتُ في ساقِهِ. فنهَضَ وهُوَ يُزَمْجِرُ؛ ولكنَّه وقَعَ؛ فعادَ إلى النهوضِ على ثلاثِ قوائمَ، وراحَ يزأرُ زئيراً رهيباً، ثم تحرَّكَ ليَهْرُبَ. ولكنني

أخذْتُ البُنْدُقيَّةَ الثانية، وعاجَلْتُهُ بطَلْقٍ أصابَهُ، هذهِ المرَّةَ، في رأسه.

وعاودَتْ «كسوري» الشجاعةُ، فطلَبَ مني أن أسمحَ لهُ بالنزول إلى البرِّ. وما لبثَ أن قفزَ إلى الماء ثم أخذَ بُنْدُقيَّةً، ورفَعَها بيدٍ وباليدِ الأخرى راحَ يَسْبَحُ حتى وَصَلَ إلى الشاطىء. فجرَى نحوَ الأسد ووضَعَ فُوَّهَةَ البُنْدُقيَّةِ في أُذُنِه، وقضَى عليه نهائياً بطَلْقَةٍ ثالثة.

لقد تسلَّيْنا حقاً في هذه الرِّحلةِ ولكنَّنا لم نَحْصُلْ على شيءٍ نأكُلُهُ. وداخلَني النَّدَمُ على الطَّلَقاتِ الثَّلاثِ التي خسِرْتُها في سبيلِ حيَوانٍ لا يُؤْكَلُ. ولكنني عُدْتُ فأدْرَكْتُ أنَّ جِلْدَهُ يُمْكِنُ أن يُفيدَنا. وهكذا عمَدْتُ إلى سَلْخِهِ بمعونة «كسوري»، الذي برْهَنَ على أنَّه أمهرُ مني في هذا العمل. واستغرقَتِ العمليةُ نصفَ النهار. وحملْنا الجلْدَ وعُدْنا إلى الزَّوْرَقِ، فطرَحْتُهُ على سطْحِ الحجرة، حيثُ جفَّفَتْهُ الشمسُ خلالَ يومَيْنِ؛ ثم استخْدَمْتُهُ بعد ذلك كفِراش.

وظلَلْنا نجري عشَرَةَ أيامٍ في مُواجهة الشاطىء. ولاحظْتُ أن تلك المناطقَ مسكونةٌ. فقد ميَّزْتُ أناساً سُودَ البَشَرةِ عُراةَ الأجسام. ورُحْتُ أقتربُ لأرى إن كانوا مُسلَّحين.

وكانوا، هم يركضون بدوْرِهم لينظروا إلينا؛ فلم أرَ سلاحاً

مَعَ أحد : غير أنَّ واحداً منهم كان يَحْمِلُ عصاً . فقـال «كسوري» إن هذا سَهْم ، وإنَّ هناك من يستطيعُ قَذْفَ هذا السهم بعيداً مع إصابة الهدف الذي يُريد . فبقِيْتُ على مسافة لا بأسَ بها ؛ ولكنني رُحْتُ أكلِّمُهُمْ بالإشارة وأسألُهُم عن طعامٍ . فأشاروا إليَّ أن أتوقَّفَ . فأنزلْتُ الشِّراعَ . وذهبَ نفرٌ منهم ، ثم عادوا بعْدَ نصفِ ساعةٍ وهُمْ يحملون قِطْعَتَيْن من اللحم وكميَّةً من الحبوب . ووَضَعوا كلَّ ذلك على الشاطىء ثم تراجَعُوا ليتْرُكُوا لنَا الفُرْصَةَ لأخذِهِ دُوْنَ خوْف . فأخذْنا مؤونتَنا بحذَرٍ وتركْنا لهُمْ بَعْض زُجاجاتٍ من الشَّراب ، كما تركْنا جِرارَنا . وملأوا الجرارَ التي أخذناها بنفس الحذر .

ولما تزَوَّدْنا بهذا الزَّاد، رفَعتُ الشِّراع ورُحْتُ أمْخُرُ البحرَ جنوباً خلالَ أحدَ عشَرَ يوماً ، دُوْنَ أن يَخْطُرَ لي أن أنزِلَ إلى البر . ورأيتُ على مسافةِ أربعةٍ أو خمسةِ فراسخَ أنَّ اليابسةَ تمتَدُّ في لسان طويل إلى عُرْض البحر . ولما دُرْتُ حولَ هذا الرأسِ لاحظتُ أنني على بُعْد فرسَخَيْن من ساحلِ القارَّة ؛ كما بدَتْ لي أراضٍ أخرى في الأُفُق البعيد . فاستَنْتَجْتُ من ذلك أنني بين الرأسِ الأخضر ، من ناحيةٍ ، وبين الجُزُر التي تحملُ اسمَهُ ، من الناحيةِ الأخرى .

وبينما أناحائرٌ في اختيارِ الاتجاه الذيعليَّ أن أتَّخِذَهُ ، ناداني

«كسوري» الذي كان على الدفَّة : «سيِّدي ، سيِّدي ، أنا يرى سفينةً بصواري!» . فخَرَجْتُ من الحُجْرَة مُسْرِعاً ، ورأيْتُ السفينةَ وعرَفْتُ أنَّها برتغالية . فرُحْنا نجذِفُ بقوَّةٍ من أجل الاقترابِ منها . ولكنَّها كانَتْ سريعةً ، ففقدْتُ الأملَ في إدراكِها، وداخلَني هَمٌّ شديدٌ . ولكن يَبْدو أنَّ بحارةَ السفينةِ رأَوْنا بالمنظارِ المكبِّر ، فظنُّوا أنَّ مركبَنا متخلِّفٌ عن سفينة أوربية غارقة ، فخفَّفُوا سُرْعتَهم، ليمكِّنُونا من اللَّحاق بهم . فعاوَدَني الأملُ ؛ وأخذْتُ علَماً صغيراً كنتُ أحملُهُ ، ثم علَّقْتُهُ علىحبالِ المركبِ، وأطلَقْتُ طلْقةً من البُنْدُقيَّة لطلَبِ النَّجدة . بَعْدَ هذا رأيتُهُمْ يُنْزِلونَ جميعَ القلوع وينتظرونني . فأدركْتُهُمْ بعدَ ثلاث ساعات .

وراحوا يسألونَني عن وَضْعي بالبرتغاليّة والاسبانيّة والفرنسية ؛ ولكني كنتُ أجهلُ جميعَ هذه اللغات . وأخيراً خاطبَني بحارٌ أسكتلنديّ كانَ مَعَهُمْ فأخبَرْتُهُ بأنني انكليزيّ ، وأنـي فرَرْتُ من أسْرِ أحدِ الاتراك . فاستقبلوني على سفينتِهِم بالتَّرْحاب .

ولاتَسَلْ عن السعادةِ التي شعَرْتُ بها بَعْدَ أن تَخَلَّصْتُ من الوَضْعِ البائسِ الذي كنتُ فيه . وعرَضْتُ على القُبْطان ما معي من النُّقود . فردَّها قائلاً إنه بإنقاذ حياتي ، لم يصنَعْ

سوى ما يتمنّى أن يَصْنَعَهُ له الآخرونَ لو كانَ في مكاني .. ومن يدري ، فقدْ يَمُرُّ هُوَ يوماً بنفس التجربة . ثم إنّ الأشياءَ والنقودَ التي معي يجبُ أن أستعينَ بها في البرازيل كيما أعودَ إلى بلادي . ووَضَعَ أشيائي في «العنبر» وأعطاني قائمةً بها لأتسلّمَها متى وصلْنا .

بالنسبة إلى المركبِ فقدْ عرَضَ عليّ أن يشتريَهُ مني بثمانينَ قطعةً ذهبيةً تعادلُ الجنيهَ الأسترليني . كذلك عرَضَ عليّ ستّينَ قطعةً في «كسوري» . ولكنني لم احتمِلْ فكرةَ أن أبيعَ حريةَ هذا الغلامِ الطيِّبِ الذي خدَمَني بإخلاص . وأطْلَعْتُ القبطانَ على ما يساورُني . فأعلنَ أنّهُ مُستعِدٌ أن يتعهّدَ خطيّاً بأن يحرِّر «كسوري» بعدَ عشرةِ أعوام ؛ ووافقَ «كسوري» على ذلك .

وجرَتِ الأمورُ على ما يُرام ؛ ووَصَلْنا بعْدَ نحوِ اثنين وعشرينَ يوماً إلى خليج «جميع القديسين» بالبرازيل . وقد تصرّفَ القبطان معي بمنتهى الشّهامة ؛ فدَفَعَ لي أربعينَ «دوقةً» (عملة ذهبية قديمة في البندقية) في جلدِ الأسد ؛ كما اشترى مني جميعَ الأشياء التي كنتُ أملِكُها . وهكذا نزلْتُ إلى أرضِ البرازيل وفي جيبي مئتا قطعةٍ ذهبية .

وعرّفني القُبطانُ كذلك برجلٍ طيِّبٍ مثلِه ، يملكُ مزرعةَ قصَبٍ ومعملاً لصُنْعِ السُكّر . فعِشْتُ عند هذا الرّجُلِ فترةً

من الزمن تمرّسْتُ خلالها في زراعة قَصَبِ السُكّر ، وصناعة السُكّر . ولما رأيْتُ كيف يكوّن الناسُ الثرَواتِ الضّخْمةَ من زراعة القَصَب ، خطَرَ لي أن أجرّبَ حظّي وأستغِلّ ما أملِكُهُ في انكلترا في هذه الزراعة . وهكذا تجنّسْتُ بالجنسية البرازيلية ، واشترَيْتُ قطعةَ أرض ، ووضعْتُ خطّةً لإقامة منشآتٍ تتناسبُ مع قيمة المال الذي أتوقّعُ وُرُودَهُ من انكلترا .

وكان لي جارٌ برتغاليٌ تلاصِقُ أرضُهُ أرضي . كان رأسمالُه متواضعاً كرأسمالي ؛ فعِشْنا معاً في تفاهُمٍ تامّ ؛ وظلَلْنا سنتَيْنِ نعمَلُ بجدٍّ ، دُونَ أن نحصلُ إلاّ على القُوْت . ولكننا بدأنا بعد ذلك نتقدّم ، واستطَعْنا أن نوسّع رُقْعَتَي الأرضِ اللتين نمتلكُهما .

ولكنّ النّدَمَ أخذَ يعذّب نفسي .. إنني أعملُ الآن في ميْدان بعيدٍ جداً عن الميْدان الذي كنتُ أطمَحُ إليه ، والذي ترَكْتُ بلادي من أجلِه . ألم يكنْ بمقدوري أن أقومَ بنفسِ العمل الذي أقومُ به الآن ، في بلدي وعلى مقْربةٍ من أهلي ، بدَلَ أن أزاولَهُ بين الأجانب والناسِ المتأخرين ؟

خلالَ نحوِ أربعِ سنوات عشتُها هناك عقَدْتُ صداقاتٍ مع مجموعةٍ من المزارعينَ والتجّار في سان سلفادور التي كانت مرفأَنا . وكنتُ كثيراً ما أتحدّث إليهم عن شواحل غينيا حيث يُمكِنُ للمرء أن يحصُلَ على «قُراضَة الذهب» وأنيابِ

الفيلة وغيرها من الأشياء الثمينة. وقلتُ لهم إن في الإمكان أيضاً شراء العبيدِ بأسعارٍ زهيدة. والعبيدُ كانوا نادرينَ في البرازيل وأثمانُهُمْ مرتفعةٌ جداً، لأنَّ الحكومةَ البرتغاليةَ كانت تحتكرُ لنفسها تجارة الرقيق.

وذاتَ يومٍ جاءني ثلاثةٌ من المزارعين وقالوا لي إنهم يريدون أن يَعْرِضوا عليَّ أمراً يجبُ أن يظلَّ سراً فيما بيننا. فلمّا وعَدْتُهُمْ بكتمانِهِ قالوا إنهم يفكّرون في تجهيز سفينةٍ دون علم السُّلطة ليسافروا إلى غينيا. كان الجميعُ من أصحاب المزارعِ الواسعة التي تَفتَقِدُ اليدَ العاملةَ. لهذا فهُمْ يريدونَ أن ينقلوا بواسطة هذه السفينة عدداً من العبيد لاستخدامِهِمْ في المزارع. وعرضوا عليَّ أن أشترك في الرّحلةِ كوكيل شحن، وستكون حصّتي في العبيد كحصّةِ أي واحدٍ منهم دون أن أتحمّل شيئاً من النّفقات. كان العَرْضُ مغرياً إلى درجةِ أنني لم أستطِعْ رَفْضَهُ. ولكني طلبْتُ منهم أن يؤمّنوا رعايةَ زراعتي؛ فوافقوا على ذلك وتعهّدوا به خطياً.

وجهّزْتُ السفينةَ وركِبْتُها ـ لسوء حظي ـ معَ شُركائي في أول أيلول عام ١٦٥٩، ذكرى رحلتي إلى «هال» منذ ثماني سنوات.

٤. غرق روبنسون

كانت سَعَةُ السفينة مئةً وعشرين برميلاً. وكانت مزوّدةً بستّةِ مدافع، وعلى ظهرها اربعةَ عَشَرَ رجلاً، بمن فيهم أنا والقائدُ والصبيُّ البحّار. ولم نشحَنْ فيها سوى الخُرْدواتِ المختلفة.

ونَشَرْنا قلوعَنا واتجَهْنا شمالاً على طول الساحلِ حتى ننعطفَ نحوَ الساحلِ الافريقيِّ عندما نصِلُ إلى خطِّ عَرْضِ ١٠ أو ١١ شمالاً، إذ كان هذا هو خطَّ السّفر العاديّ في ذلك الوقت. كان الجوُّ رائعاً في أول الرّحلة، ولكنَّ دَرَجَةَ الحرارة كانَتْ مرتفعةً. ولما أصبحْنا قُبالةَ رأس سان أوغسطين قرّرْنا أن ننحرفَ نحو الشمال الشرقيّ. وسُرْعانَ ما اختفَتِ اليابسةُ عن أبصارنا. وظلّتِ السفينةُ تَشُقُّ البحرَ في جوٍّ رائعٍ مُدّةَ اثنَيْ عَشَرَ يوماً، هبّتْ علينا في نهايتها عاصفةٌ هوجاءُ غيّرَتْ خطَّ سَيْرِنا، بحيث قَضَيْنا الاثنَيْ عَشَر يوماً التاليةَ خاضِعينْ لجنون الرّياحِ التي كانت تتقاذَفُنا في كلّ ناحية.

هل اكتفَى ذلكَ الإعصارُ بأن يَمْلأَ قلوبنا هلَعاً؟ كلاّ، بل أفقَدَنا كذلك ثلاثةً من الرجال، أوّلُهم مات بالحُمّى، والاثنانِ الآخرانِ، وأحدهما الصبيُّ، ماتا غرقاً. ولما هدَأَت

الرِّياحُ في آخرِ اليومِ الثاني عَشَرَ ، راحَ القائدُ يَدْرُسُ مَوْقِعَنا ؛ فوجَدَ أنَّنا انحَرَفْنا نحوَ سواحلِ غويانا ، بعيداً عن نهرِ الأمازون ، وفي اتجاه نهر « أورينوك » .

وبعدَ أن رَجَعْنا إلى خريطةٍ بَحْرِيةٍ وجَدْنا أن الأرضَ المسكونةَ الوحيدةَ التي يمكنُ أن نلجأ إليها هي أَرْخَبيلُ البحرِ الكاريبيِّ . لهذا قرَّرْنا الاتجاهَ إلى جزيرة « برباده » التي نستطيعُ الوصولَ إليها في مدّةِ خمسةَ عَشَرَ يوماً . أما رحلَتُنا إلى إفريقية فلا يمكنُ التفكيرُ فيها قبلَ أن نُعْنَى بأنفسنا وبالسفينة .

وهكذا غيَّرْنا خطَّ سَيْرِنا واتَّجَهْنا نحوَ الشمالِ الغربيِّ على أملِ أن نصِلَ إلى إحدى الجُزُرِ التي يَسْكُنُها انكليز ، حتى نطلُبَ مَعُونَتَهُم . ولكنَّ الرحلةَ كانَ مقدَّراً لها أن تَنْتَهِيَ على نحوٍ آخرَ . ففي مساءِ اليومِ الخامسِ هاجَمَتْنا عاصفةٌ ثانيةٌ حَمَلَتْنا ، بمثلِ شِدَّةِ الأولى ، نحوَ الغربِ في هذه المرَّةِ ، مُبْعِدَةً إيَّانا عن كُلِّ أرضٍ فيها أثرٌ للأوربيين ؛ فحتى لو نَجَوْنا من الغَرَقِ فإنَّنا لَنْ نَنْجُوَ من أيدي المتوحِّشين .

ظلَّتِ الرِّياحُ تَعْصِفُ طُولَ الليلِ بعُنْفٍ بالغٍ ؛ وعندما ظَهَرت أشعَّةُ الفجرِ الأولى صاحَ أحدُ البحّارة : « البرّ » . وما إن خرَجْنا لننظُرَ في أيِّ أرضٍ كُنّا حتى اصْطَدَمَتِ السفينةُ بطَبَقَةٍ رَمْلِيةٍ فاستقرّت في مكانِها ؛ وأدّى توقُّفُها الفُجائيُّ

إلى اندفاعِ الأمواجِ الهائلةِ إلى داخلِها بشكلٍ خِلْنا معَهُ أنها قَضَتْ علَيْنا جميعاً . واستَوْلَى علينا الهُمودُ في انتظار انتقالِنا إلى العالَمِ الآخرِ . كُنّا نَجْهَلُ إنْ كانَتْ هذه الأرض ساحلَ قارَّةٍ أو جزيرةً من الجُزُر . والشيءُ الوحيدُ الذي كان يُعَزِّينا هو أنَّ سفينَتَنا لم تَتَحَطَّمْ ؛ ولكنَّ الرِّياحَ ما زالَتْ عاصفةً والأمواج عاتية . لهذا يمكِنُ أن نتوقَّعَ تحطُّمَها في أيِّ لحظة .

ومعَ هذا فقد بدأتِ الرياحُ تَضْعُفُ . وبدأ الجوُّ يَنْجلي بعضَ الشيء ؛ إلا أنَّ السفينةَ كانَتْ قد غرَزَتْ في الرِّمال بحيثُ لم يَعُدْ لنا أملٌ في ارتفاعِها مرَّةً أخرى . وكانَتِ السفينةُ ، قَبْلَ العاصفةِ ، تَقْطُرُ فُلَيْكَةً تحطَّمَتْ ثم غرِقَتْ من كَثْرَةِ ما اصْطَدَمَتْ بالدَّفّة . ولكنْ ، لحُسْنِ الحظ ، كان على السفينةِ مَرْكَبٌ آخرُ فاستطَعْنا إنزالَهُ إلى البحر ؛ ومن ثَمَّ ألقَيْنا أنفسَنا فيه جميعاً . وعَدَدُنا أحدَ عشَرَ شخصاً ، واستَسْلَمْنا إلى الأقدار . تاركينَ السفينةَ وما فيها تحتَ رحمةِ الأمواج ، إذ ، بالرَّغم من أنَّ العاصفةَ قد خفَّتْ حِدَّتُها ، فإنَّ البحرَ ما زال عالياً بشكلٍ رهيب .

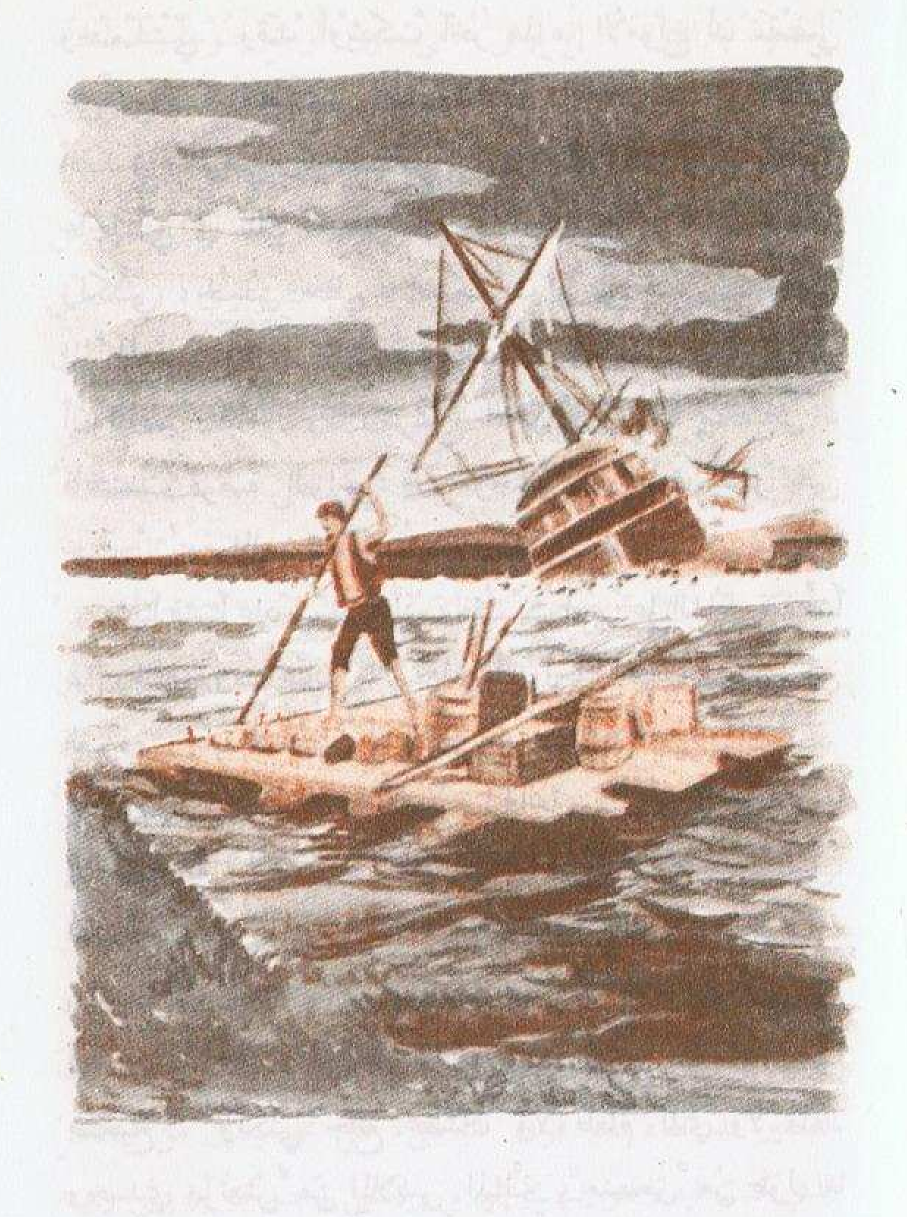
ولم يمضِ علينا نصفُ ساعةٍ ، ونحنُ نجذِفُ ونذْهَبُ تارةً في هذا الاتجاهِ وطَوْراً في ذاك ، حتى رأينا موْجةً عِملاقةً تتقدَّمُ من خلْفِنا . لقد كانَ ذلكَ إنذاراً لنا بأنَّ لحظتَنا

الأخيرةَ قد دَنَتْ . وبالفِعْلِ تكسَّرَتِ الموجةُ بعُنْفٍ مُذْهِلٍ ولم تَتْرُكْ لنا سوى فُرصةِ الصِّياحِ بصوتٍ واحدٍ طالِبِيْنَ رَحْمَةَ الله ؛ ثم ابتَلَعَتْنا جميعاً .

مَهْما حاوَلْتُ فلَنْ أجِدَ الكلماتِ التي استطيعُ أنْ أصِفَ بها ما شَعَرْتُ به في تلكَ اللَّحظة . فبالرَّغمِ من مَهارَتي في السِّباحة فإنَّ المَوْجَةَ لم تُمَكِّنِّي من رَفْعِ رأسي فوقَ الماء لأتنفَّس ، بل ظلَّتْ مُنْدَفِعَةً بي نحوَ الشاطىء وتركَتْني نصْفَ مَيْتٍ ، من كثْرةِ ما دَخَلَ إلى جَوْفي من الماء . ولما رأيْتُ نفسي قريباً من اليابسةِ بَذَلْتُ آخرَ مجهودٍ كي أصِلَ إليها قبلَ أن تُدْرِكَني مَوْجَةٌ جديدة . والتفتُّ ورائي فوَجَدْتُ البحرَ ثائراً مُهَدِّداً ، كأنَّهُ عَدُوٌّ مخيفٌ لا قُدْرَةَ لي على الوقوفِ في وَجْهِه .

وهاجَمَتْني الموجةُ الثانية ، وهي ترتفعُ فوقَ ما بينَ عشرينَ وثلاثينَ قدماً ، وطَوَتْني في أحشائها . ولكنَّني شعرْتُ أنِّي مدفوعٌ نحو اليابسة بقوَّةٍ وسرعة مذهلتَيْن . وساعَدْتُ هذا الاندفاعَ بالسباحة . وفجأةً وجدْتُ رأسي في الهواء الطَّلْق ، وذلك لمدة ثانيتَيْن . فأخَذْتُ نَفَساً طويلاً أراحني بعضَ الشيء ، قبل أن تَغْمُرَني المياهُ من جديد .

واستطعْتُ أخيراً أن أضعَ قدَميَّ على الأرض . فظَلَلْتُ واقفاً لحظةً كَيْما أتنفس . ولكنَّ عِدَّةَ موجاتٍ هاجمَتْني



« وهكذا قمت بخمس رحلات او ستّ حملتُ فيها .. »

وحملتني . وقد أوشكت آخر هذه الأمواج أن تقضي
عليّ . فقد قذفتني على صخر ، فارتطمت به بعنف
أفقدني الوعي للحظات . ولو أنّ موجةً جديدةً
عاجلتني في تلك اللحظة لأنهت حياتي دون أيّ شكٍّ .
ولكنّني ، لحسن حظي ، استعدت الوعي قبل أن تصل
إليّ الموجة، فتشبثت بنتوء في الصخر وحبست أنفاسي إلى
أن تنحسر المياه . وكان ارتفاع الأمواج قد بدأ ينخفض ،
فاغتنمت فرصة التراخي بين موجتين ورحت أقفز حتى
خرجت من الماء، فتهالكت على الحشائش وأنا على آخر نفس.

وشيئاً فشيئاً عادت إليّ قوّتي ، فقمت أسير على الشاطىء مفتشاً
عن رفاقي . وسرعان ما تبيّن لي أنّ أحداً منهم لم ينج من
الغرق . إذن فقد كنت أنا الناجي الوحيد .

ورميت ببصري نحو السفينة الجانحة، فلم أستطع تمييزها
إلا بصعوبة ، لأنّ البحر كان مرغياً مزبداً . وعجبت كيف
استطعت أن أصل إلى البر .. لقد عدت بالفعل من الموت !
والعودة من القبر تولّد سعادةً لا يمكن وصفها .. ولكن على
أي أساسٍ تقوم فرحتي ؟ لقد نجوت من الموت .. هذا
صحيح .. ولكنني جائعٌ عطشان ولا طعام لديّ ولا ماء .
وجسدي مرتعشٌ من الملابس المبتلّة ، منسحقٌ من طول ما
صارع الأمواج ، ولا ثوب معي أتجنّب به الرّطوبة ولا شيء

أستعيد به القوّة .. إنه ليس أمامي سوى الموت جوعاً وعطشاً،
إذا لم تفترسني الحيوانات الضارية . لم يكن معي سوى
مديةٍ وقليلٍ من التبغ .

ولما كان النهار قد أصبح في أواخره فقد قرّرت أن أفتّش عن
شجرة أقضي عليها ليلتي تلك خوفاً من الضّواري . وبالفعل
عثرت على شجرةٍ من النوع الصّنوبري . ومن ثمّ مضيت
أفتّش عن ماء . ولحسن حظي وجدت ماء ، فشربت حتى
ارتويت ؛ ثم وضعت قليلاً من التبغ في فمي ورحت أمضغه
حتى أقضي على شعوري بالجوع . بعد ذلك ارتقيت الشجرة
وأحكمت جلستي بحيث لا أقع إذا أغفيت . وكنت أحمل
عصاً صغيرةً قطعتها لأدافع بها عن نفسي . وما لبثت أن
غرقت في نوم عميقٍ لشدّة تعبي .

عندما أفقت كانت الشمس مرتفعةً، وكان البحر هادئاً والجوّ
رائقاً بعد زوال العاصفة .

وأوّل ما أدهشني أن المدّ كان قد انتزع السفينة من الرمال
وحملها إلى قرب الصخر ، الذي كدت ألقى الموت عليه ،
حيث ظلّت ساكنةً على قاعدتها . كذلك لاحظت أنّ المركب
الصغير قد ألقاه المدّ فوق الشاطىء على نحو ميلين من المكان
الذي كنت فيه . فتوجّهت إليه ، ولكنني وجدت أن بيني وبينه
لساناً من البحر عرضه نحو نصف ميل . فصرفت النظر

عَنْهُ مؤقتاً ، كيما أذهبَ إلى السفينةِ لأحمِلَ شيئاً يَسُدُّ جوعي .

٥. مكتشفات ثمينة

بعدَ الظُّهر أصبحَ البحرُ أشبهَ ببركة من الزيت ، وقد حَسَرَ الجزْرُ المياهَ إلى أقصى حدٍّ ، حتى أصبحَ ما بيني وبين السفينةِ نحوُ ربع ميل . وكان الجوُّ بالغَ الحرارة ، فخلَعْتُ ملابسي ورُحْتُ أسبَحُ نحوَ السفينة . كانت مرتفعةً بحيث لا يمكنُ ارتقاؤها . فدُرْتُ حولها ، فإذا بي أعثُرُ على حَبْلٍ يتدلّى من مُقَدَّمِها ، الذي كان منخفضاً جداً في حين كان مؤخَّرُها مُرْتفعاً على نَفْسِ الصُّورة ؛ لذلك كان السطحُ جافّاً وكانت جميعُ الأشياء في الجزء الخلفيِّ سليمةً ، في حين أن المياهَ متجمعةٌ في الجزء الأماميِّ ، لأنَّ السفينة مشقوقة .

كان أولَ همٍّ هوَ أن أُسْكِتَ الجوعَ في مَعِدَتي . فتوجَّهْتُ إلى العَنْبر ، حيثُ كانتِ المؤنُ في حالة جيدة ، وأخذْتُ كميةً من البسكوت رُحْتُ ألتهِمُها ، وأنا أتابعُ التفتيش .

كان في السفينةِ بعضُ الصواري والأعمدةِ الاحتياطية والأخشاب . فربطْتُ الخفيفَ منها بحَبْل ، وقذفتُ به إلى الماء . ثم نزلتُ من

السفينة ، وربَطْتُ أربعةً من الأعمدة إلى بَعْضِها من الطرفَين على شكلِ طَوْف ، ووَضَعْتُ فوقها ، بالعَرْض ، أربعةَ ألواحٍ خشبيةٍ من الألواحِ القصيرة ، وصَعَدْتُ فَوْقها . فوجدْتُ أنني أستطيعُ السيرَ عليها . غير أنني وجَدْتُ أنها لا تتحمَّلُ شيئاً ثقيلاً ، نظراً لخفتها . فصَعَدْتُ مرةً أخرى إلى السفينة ، ونشرْتُ بمنشارِ النجار عارضةً من عوارِضِ الصَّواري الاحتياطية ، فجعَلْتُها ثلاثَ قِطَعٍ متساويةٍ ضَمَمْتُها إلى طَوْفي بكثيرٍ من الجهد . وهكذا أصبحَ الطَّوْفُ قادراً على حَمْلِ وزنٍ معقول . ثم وَضَعْتُ عليه جميعَ الألواحِ الخشبيةِ التي وجَدْتُها .

وبَعْدَ أن فكَّرْتُ في الأشياء التي أنا في حاجة أشدَّ إليها من غيرها ، عَمَدْتُ إلى ثلاثةٍ من صناديقِ البحّارةِ ، فكسَرْتُ أقفالَها وأفرغْتُ محتوياتِها ، ثم دَلَّيْتُها بحبال ، ووَضَعْتُها على الطَّوْف . أما الصندوقُ الأوّلُ فقد وضَعْتُ فيه خبزاً وأرُزّاً وثلاثَ قِطَعٍ من الجبن الهولندي وخمسَ قِطَعٍ من لحم الجدْي المُجفَّف ، وكميّةً باقيةً من القمح الأوربي . كذلك وجَدْتُ كميةً من الشعير المخلوط بالحِنطة ، ولكنَّني لاحظتُ ، لسوء الحظ ، أن الجرْذانَ قد أفسدَتْها . وكانت هناك عدّةُ صناديقَ من المشروبات الروحية المختلفة ، فأخذْتُ جُزْءاً مِنْها ، إذْ لم تكُنْ ضرورية ، ولم يكُنْ من الممكنِ جمعُ

زجاجاتها في صندوق .

ولاحظتُ أن المدَّ قد أخذَ ملابسي عن الشاطىء بينما كنتُ منهمكاً في العمل ، فلفتَتْ هذه الحادثةُ نظري إلى ضرورةِ التفتيشِ عن ملابس . فاكتفيت بأخذ ما أحتاجُ إليه من الملابسِ الموجودةِ ، صارفاً اهتمامي إلى الأشياء التي كنتُ أرى أنها ذاتُ ضرورةٍ مُلِحَّةٍ . من هذه الأشياءِ بعضُ الأدواتِ التي تساعدُ في العملِ متى عُدْتُ إلى الجزيرة . وكم كانت فَرْحَتي كبيرةً عندما عثَرْتُ على صندوق النجّار ، الذي وجدتُ أنه لُقْيةٌ أهمُّ من سفينة محمّلة بالذّهب . فدلَّيْتُهُ إلى الطَّوْف حتى دُوْنَ أن أفتحَهُ .

بَقِيَ عليَّ أن أتزوّدَ بالأسلحةِ والذخيرة . وقد وَجَدْتُ في حُجْرةِ القائدِ بندقيَّتَيْن ممتازتَيْن ومُسدَّسَيْن ، فحمَلْتُها ، كما حمَلْتُ عِدّةَ قرونٍ مملوءةٍ بالبارود ، وكيساً من الخُرْدُق وسيْفَيْن قديمَيْن صَدِئَيْن . وكنتُ أعرفُ أنَّ في السفينة ثلاثةَ صناديق بارودٍ ، ولكنني لا أعرف أين خبّأها المِدْفعيُّ . فرُحْتُ أُفتِّشُ عنها ، حتى اكتشفتُها . فوجَدْتُ أن اثنَيْن منها لم يُفْسِدْهُما الماء ؛ فوضعتُهما معَ الأسلحةِ على طَوْفي .

والآن أصبحَ عليَّ أن أقودَ الطَّوْفَ إلى الجزيرة بسلام . ولم يكن لديَّ لا قِلْعٌ ولا مِجذافٌ ولا دَفّةٌ ، وأيُّ صَدْمةٍ من

شأنِها أن تُغْرِقَ حُمولَتي الثمينة .. فماذا أفعل ؟

في الواقع أن ثلاثةَ عواملَ كانَتْ في خِدْمَتي : فقد كان البحرُ هادئاً ، والمدُّ يتحرَّكُ نَحْوَ الجزيرةِ ، ثم إنَّ الريحَ كانَتْ مُواتيةً كذلك ، بالرَّغم من ضَعْفِها . وقَدْ عثَرْتُ على ثلاثةِ مجاذيفَ ، نصفِ محطَّمةٍ ، وعلى منشارَيْنِ ومِنْقارٍ ، فأضَفْتُها إلى الشّحنة ، وتَوَجَّهْتُ بطَوْفي نَحْوَ الجزيرة . وقد جرى الطَّوْفُ بشكلٍ رائعٍ مسافةَ ميلٍ ؛ ولكنني لاحظتُ أنه ينحرفُ عن المكان الذي نزَلْتُ منه ، فعلمتُ أن هناك تياراً يَدْفَعُني ، لهذا أمَّلْتُ أن أجِدَ جُوْناً أو مَصَبَّ نهرٍ يكون لي بمثابة مرفأ أُنْزِلُ فيه حُمولَتي .

ولم يَكْذِبْ ظني ؛ فقد حملَني التيارُ إلى جُوْنٍ يَصُبُّ فيه نهرٌ صغير . وأعانني المَدُّ على الوصولِ إلى مكانٍ صالحٍ استعَنْتُ بالمِجذاف لتثبيتِ الطَّوْفِ فيه إلى أن تنسحبَ المياه . وجاء الجَزْرُ فغادَرَ طَوْفي على اليابسة ، في أمان .

ورُحْتُ أستكْشِفُ المنطقةَ لأجِدَ المكانَ الملائمَ لسَكَني ولحماية الأشياء ، التي حمَلْتُها ، من كلِّ شرٍ . كنتُ أجهَلُ إن كانتِ الأرضُ التي أنا فيها تابعةً للقارَّة أو لجزيرةٍ من الجُزُر ، كما كنتُ أجهَلُ إنْ كانت مسكونةً أو خاليةً من البشر . وعلى مسافة نحوِ ميلٍ رأيتُ جبلاً عالياً ، صَعْبَ المُرْتقَى يُشْرِفُ على سِلْسِلةٍ من القِمَمِ الأخرى . فأخَذْتُ بندقيةً

ومسدساً وقرناً من البارود وكيساً صغيراً من الخردق ، ومضيت لاستكشاف الجبل ، الذي لم أبلغ أعلاه إلا بعد عناء شديد . ونظرت حولي ، من قمة الجبل ، فأدركت في الحال أي مصير بائس ينتظرني . لقد كنت في جزيرة منعزلة لم أر حولها سوى صخور ناتئة ، وجزيرتين صغيرتين تقعان على بعد ثلاثة فراسخ تقريباً إلى جهة الغرب . ولاحظت من جهة ثانية أن جزيرتي غير مزروعة ؛ ولهذا تبادر إلى ذهني أنه لا يوجد فيها أي كائن بشري . أما الحيوانات المفترسة فلم أصادف أياً منها ؛ ولكني رأيت مجموعة من الطيور التي لا أعرفها . وعند هبوطي من الجبل اصطدت طائراً كبيراً من هذه الطيور .. ولا شك أن طلقتي كانت أول طلقة في هذا المكان منذ بدء الخليقة ! أما الطائر فقد كان من نوع الصقور وكانت له رائحة كريهة ، إذن فلا فائدة منه .

ولما عدت إلى طوفي ، أخذت أنزل عنه حمولته ؛ وهذا العمل شغلني باقي النهار . والآن علي أن أفكر في المبيت . إنني لا استطيع أن أقضي الليل في العراء هكذا ، خوف الحيوانات المفترسة . فما كان مني إلا أن وضعت الصناديق والأخشاب على شكل دائرة ، وحصنت بها نفسي .

لم تكن لدي فكرة عن الموارد التي تشتمل عليها جزيرتي ، وإن كنت قد صادفت ، وأنا هابط من الجبل ، حيوانات تشبه

الأرانب . ولكنني كنت مقتنعاً بأنني أستطيع أن أحمل من السفينة أشياء أخرى مفيدة ، قبل أن تحطمها عاصفة جديدة بصورة نهائية . فلا بد إذن من رحلة ثانية إليها . ورأيت أنه من غير المعقول أن أعود إليها بطوفي ، فقررت أن أنتظر الجزر وأفعل كما فعلت في المرة الأولى .. وهكذا كان .. فقد ذهبت إلى السفينة وصنعت طوفاً جديداً أهم من الأول بفضل الخبرة التي اكتسبتها ؛ وبذلك استطعت أن أنقل عليه أشياء كثيرة منها : مسامير كبيرة وصغيرة ومثقب وفراعات وحجر للسن ومخول حديدية وبرميلان من الرصاص وسبع بنادق حربية وبندقية صيد ... وحملت كافة الملابس التي عثرت عليها ، وشراع ميزان احتياطياً وسريراً أرجوحة (هاماك) وفراشاً وأغطية ؛ ورتبت كل هذا على ظهر طوفي ، وعدت به إلى اليابسة . وقد قوى ذلك معنوياتي بالرغم من وجودي في هذه البقعة الضائعة .

ولما أنزلت حمولتي صنعت خيمة ، حصنتها من جميع الجهات بالصناديق والبراميل ونقلت إلى داخلها كل ما من شأنه أن يفسد من المطر أو الشمس . ثم سددت مدخلها بصندوق وألواح خشبية ، وأويت إلى سريري لأذوق راحة النوم للمرة الأولى .

ورغم كثرة ما جلبت من الأشياء ، فإنني كنت مقتنعاً

بأنَّ عليَّ أن أحصلَ على المزيدِ ما دامت السفينةُ هناك . وهكذا
قمتُ بخمس رحلات أو ستٍّ حملتُ فيها كلَّ ما أمكنني
حملُه أو نزعُه من الأشياء المفيدة ، ونزعتُ جميعَ
الأشرعة ، الكبيرَ منها والصغيرَ ، وحملتُ برميلَ البارودِ
المبتلَّ . واكتشفتُ برميلاً كبيراً من البسكويت وعلبةَ
سكّرٍ أسمرَ وكيلاً من الدقيق الممتاز لصنعِ الحلوى ...
ولمّا لم يعدْ في السفينةِ شيءٌ غيرُ تالفٍ ، عمدتُ إلى
الكبلات فقطعتُها قطعاً تتناسبُ مع قدرتي على حملِها ،
وأخذتُ الحبالَ الغليظةَ ، كما نزعتُ ما أمكنني نزعُه من
الحديد ... غير أنَّ الحمولةَ كانتْ ثقيلةً إلى حدٍّ أن الطوفَ
الذي صنعتُه من الصواري انقلبَ بي ، عندما وصلتُ إلى
مينائي المعهود . وقد خسرتُ جزءاً كبيراً من الحمولة ، وخاصّةً
الحديد . ولكنني أنقذتُ بعضَ هذا الجزء الغارقِ ، عندما
انحسرتِ المياهُ وقتَ الجزر .

وزادتْ رحلاتي ، حتى وصلتُ إلى الإحدى عشرةَ رحلةً
لأنَّ هدوءَ البحرِ دامَ ثلاثةَ عشرَ يوماً . ولو أنَّ هذا الهدوءَ
دامَ أكثرَ من ذلك لنقلتُ السفينةَ برمّتِها ، قطعةً قطعةً .
ومع ذلك لم أتردَّدْ في القيامِ بالرحلةِ الثانية عشرة ، التي
عثرتُ فيها على أشياء جديدة ، بالرَّغم من تفتيشي الدقيقِ
السابق . وجدتُ خزانةً ذاتَ أدراجٍ فيها أمواسُ حلاقةٍ

ومقصّاتٌ وسكاكينُ وشوكاتٌ . وفي أحد الأدراجِ وجدتُ
ستّةً وثلاثين جنيهاً ، بعضُها بالنقد الأوربي والبعضُ الآخرُ
بعملة البرازيل ، وكان نصفُها ذهباً والنصفُ الآخرُ فضّةً ،
فصحتُ : « باطل الأباطيل ! إنَّ هذا الكنزَ لا يستحقُّ حتى
أنْ أنحنيَ لآخذَه !.. إنَّ سكيناً واحدةً من سكاكيني لأثمنُ
في نظري من ثروةِ قارون ! » . ومع ذلك دسستُ المبلغَ في
جيبي من أجلِ المستقبل . وما إن انتهيتُ حتى لاحظتُ أن
السماء بدأتْ تكتسي بالسُّحب ، وبدأ الجوُّ يبردُ منذراً
بالعاصفة . ولم يمضِ ربعُ ساعةٍ حتى هبّتِ الريحُ من ناحية
الشاطىء ، فأدركتُ أنَّ الوقتَ لن يسمحَ لي بصنعِ طوفٍ ،
فعدتُ سباحةً ، بالرَّغم من ثقل الأشياء التي أحملُها في جيوبي ،
مما كلّفني جهداً كبيراً . وظلَّ الجوُّ العاصفُ طوالَ الليل . وفي
الصباح ، عندما خرجتُ من خيمتي ، لم أرَ للسفينة أيَّ أثر .

٦. الاستقرار في الجزيرة الخالية

منذ تلكَ اللحظةِ انصرفَ تفكيري إلى إقامة مسكنٍ صالحٍ ،
يحميني ويحمي ممتلكاتي . أولُ فكرةٍ تبادرَتْ إلى ذهني هي
أنَّ المكانَ الذي كنتُ فيه غيرُ مناسبٍ للإقامة ، لأنّهُ منخفضٌ

من ناحية ، ومُحاطٌ ، من الناحية الأخرى ، بالمُستَنقَعات .
مما يَجعَلُهُ غيرَ صحيٍّ . وعلى هذا فقد كان عليَّ أن أفتِّشَ عن
المكانِ الملائمِ لإقامة منزل .

هذا المكانُ لا بُدَّ أن تتوفّر فيه أربعةُ شروطٍ أساسيّةٍ . فهو ،
قبلَ كل شيء ، يجبُ أن يكونَ صحيّاً ، وبالتالي أن يكونَ
بجانبه ماءٌ صالحٌ للشُّرْب . ثم يجبُ ألاَّ يكونَ مُعرَّضاً لأشعّةِ
الشمس المُحْرِقةِ ، وأنْ يحميَني من أيِّ هجومٍ ، سواءٌ من
قِبَلِ البشر أو الحيواناتِ المفترسة . ورابعُ هذهِ الشروطِ هو أن
يكونَ مُشْرِفاً على البحر ، لعلّي أرى سفينةً تُعيدُني ذاتَ
يومٍ إلى بلادي .

في أثناء تفتيشي عَنِ النُّقْطة التي تشتملُ على كلِّ هذه المزايا ،
وجدْتُ أرضاً منبسطةً عندَ أسفلِ رابيةٍ مرتفعةٍ ، لها
جَبْهةٌ صخريةٌ قائمةٌ ، أشبهُ بواجهةِ بناء . وفي قاعدة هذا
الصّخر مغارةٌ ليس لها سوى مَنْفَذٍ واحد .

على هذه الشُّرْفة ، وبالضبط عند مَدْخل التجويفِ الصّخريِّ
قرّرْتُ أن أقيمَ مسكني . كانتِ الارضُ المنبسطةُ تبلغُ نحوَ
خمسينَ قامةً عرْضاً على مئة قامةٍ طولاً . وهي تمتدُّ ، أمامَ
منزلي ، كبساطٍ أخضرَ ينحدرُ ، من جهاتهِ الثلاثِ ، انحداراً
بطيئاً نحوَ البحر . ثم إنَّ مكانَ السّكنِ يُوجَدُ في الجهة
الشّماليةِ الغربيةِ من الرّابيةِ ، مما يساعدُ على الاحتماء من

الشمس في ساعاتِ الحرِّ الشديد .

وقَبْلَ أن أنصِبَ خيمتي رسَمْتُ أمامَ التجويفِ نصفَ دائرة
يَبْلُغُ قُطرُها نحوَ عشرِ قامات ، أقمْتُ حظيرةً في حدودها
فثبّتُّ صفّيْنِ من الركائزِ المتينةِ على ارتفاعِ خمسِ أقدامٍ
ونصف ، وبين الركيزةِ والركيزةِ مسافةٌ لا تزيدُ على ست
بُوصات . وجعلْتُ رأسَ الركائزِ دقيقاً . ثم جئتُ بقِطَعِ
الكَبْلات فوضعْتُها فوقَ بعْضِها بين صفَّيِ الرّكائز . ومن
ثَمَّ دقَقْتُ ، على حدودِ صفِّ الركائزِ الداخلي أوتاداً على
ارتفاعِ قدمَيْنِ ونصْف ، لتكونَ بمثابة دعامةٍ للركائز . وقد
جاء هذا الحاجزُ قويّاً بحيثُ لا يُمْكِنُ لأيِّ إنسانٍ أو وحْشٍ
أن يقتحِمَهُ أو يتسلّقَهُ . ولكنَّ هذه العملية كلّفتْني
جُهْداً ومشقّةً بالغَيْنِ ، كما أخذَتْ مني وقْتاً طويلاً .
لأنني كنتُ أذهَبُ لقَطْعِ الركائزِ من الغابات ثُمَّ أحملُها إلى
الفِناء حيثُ أعملُ في إعدادِها وتثْبيتِها .

ولم أجعلْ لهذا الحاجزِ باباً ، بل صنعْتُ سُلّماً أصعدُ عليها
للخروج والدُّخول ، ثم أسحبُها ورائي إلى داخلِ هذا الحِصْن
المنيع ، حيثُ يُمْكِنُ لي أنْ أنامَ هادئاً مطمئناً لا أخشى أيَّ
عدوان .

وفي هذا الحِصْنِ وضعْتُ كلَّ ثروتي ، ونصبْتُ خيمةً كبيرةً ،
مزدوجةً لتقيَني من الأمطارِ التي تكونُ بالغةَ الغزارة ،

أحياناً، في هذه المنطقة. بمعنى أنني نصبت خيمة متوسطة.
ثم نصبت فوقها خيمة أخرى أكبر منها. بعد هذا غطيت
الخيمة الكبرى بقماش مشمع كنت قد أنقذته من السفينة
في ما أنقذت.

ورحت أحفر داخل التجويف، بحيث أعددت مغارة ممهدة
منظمة، جعلت منها مخزناً للمؤن، وأطلقت عليها اسم
«مطبخي»، على سبيل الدعابة. وكنت أنقل الأتربة
والحجارة، الناشئة عن الحفر، وألقيها على أطراف الحاجز،
مما أدى إلى نشوء رصيف يرتفع نحو قدم ونصف عن المستوى
الأصلي.

وقد تطلبت هذه الأعمال مدة طويلة لم تخل من الحوادث
التي عطلت العمل فترات من الزمن. ففي البداية، مثلاً،
عندما كانت الخيمة والمغارة عبارة عن مشروع في رأسي،
هبت عاصفة شديدة بصورة مفاجئة وأبرقت السماء وأرعدت.
وما إن سمعت قصف الرعد حتى داخلني خوف شديد جمدني
في مكاني: ماذا يحدث لي لو أن صاعقة انقضت فجأة على
ما عندي من البارود؟ ألا يؤدي ذلك إلى انفجار أتناثر معه
في كل اتجاه؟ هذه الأفكار جعلتني أوقف جميع أعمال
التحصين والبناء لأتدبر أمر البارود. وما إن توقفت العاصفة
حتى رحت أعبىء ما لدي من هذه المادة المتفجرة، التي

يبلغ وزنها نحو مئة وأربعين رطلاً، في أكياس صغيرة
وضعتها متفرقة في تجاويف الصخر الجافة. وقد بلغ عدد
هذه الأكياس نحو المئة. أما برميل البارود المبتل فقد
وضعته، كما هو، داخل المغارة، لأنني لم أكن أخشى
أن يلتهب.

خلال هذا الوقت لم أكن أدع يوماً يمر دون أن أخرج من
حصني، مرة على الأقل، للتفريج عن نفسي، من ناحية،
والتعرف، من الناحية الأخرى، على الجزيرة وما تشتمل عليه
من نبات وحيوان. وأول مرة خرجت فيها اكتشفت أن فيها
ماعزاً. وقد أفرحني هذا الاكتشاف إلى أبعد الحدود. ولكن
هذه الحيوانات في غاية الحذر، وهي شديدة العدو بحيث
يصعب اصطيادها. غير أنني لاحظت أنها إن كانت واقفة
على الصخور وأنا في الوادي تنطلق هاربة، متى رأتني،
وتختفي بمنتهى السرعة. أما إذا كنت أنا في الأعلى وهي في
أسفل الوادي، فإنها تظل مكانها ولا تهرب. فاستنتجت
من ذلك أنها لا ترى سوى الأشياء التي تحتها. ولهذا صرت
أهاجم طريدتي من فوق. وأول عنزة اصطدتها كانت
أماً، مما أحزنني حقاً. وعندما سقطت ظل رضيعها بجانبها.
ولما حملتها فوق كاهلي سار ورائي حتى وصلت إلى حاجز
منزلي ووضعت الأم على الأرض وحملت الجدي الصغير بين

ذراعيَّ ودخلتُ به، على أملِ أن أربيّهُ وأؤهلّه. ولكنّه رفض أن يمتصَّ أيَّ غذاء، فاضطررْتُ إلى ذبحِه.

وبعد أن نظّمْتُ مسكني على هذا النحو خطر لي أنّهُ لا بُدَّ من تخصيص مكانٍ أجمعُ فيه الحَطَبَ من أجل التدفئةِ في أيامِ البرد. على أنني أدخلت تحسينات واسعةً على المَسْكن وأضفْتُ أشياء جديدة لزيادةِ راحتي. ولسوفَ أتحدث عن ذلك في حينِه. ولكنَّ أفكاراً كثيرةً كانت تَمُرُّ في خاطري بخصوص وَضْعي ومصيري.

قبلَ كلِّ شيء يجبُ أن أعترفَ أنَّ هذا الوَضْعَ تبدّى لعيني في صورةٍ رهيبة. فلقد أُلقِيْتُ في هذه الجزيرةِ المنعزلةِ بعد أن قذفَتِ العاصفةُ سفينتَنا بعيداً عن الخطّ الذي تَسْلُكُهُ السُّفُنُ في العادة. وعلى هذا فلا بُدَّ أن أكونَ على بُعْدِ مئاتِ الفراسخ من هذا الخطّ، مما يُفْقِدُني الأملَ في النجاة ويجعلني على يقينٍ بأنني سوف أقضي بقيةَ أيامي في هذا المنفى المُوْحِش.

ولكنَّ أفكاراً معاكِسةً كانت تَنْهَضُ لِتَرُدَّ على هذه وتخفّفُ عني بَلْوايَ. فبينما كنتُ ذاتَ مرةٍ اتنزّهُ على شاطىء البحرِ وبُندقيّتي مُعلّقةٌ على كاهلي، والأفكارُ السوداء تملأ رأسي، قُلْتُ في نفسي كأنني أرُدُّ عليها: أجل، إنّني في وَضْعٍ سيّءٍ لا شكَّ فيه! ولكنْ.. أينَ رِفاقي الآن؟ لقد كنا

أحدَ عشرَ رَجُلاً. فأين العشرةُ الآخرون؟ لماذا لم ينجُوا كما نجَوْتُ؟ لماذا كنتُ أنا الناجيَ الوحيدَ؟ مَنْ هُوَ أسوأ حظاً بيننا، أنا، فوق جزيرتي هذهِ، أمْ أولئك الذين غيّبَتْهُمُ الأمواج؟ أليس من العقلِ أن تجعلَنا الخيراتُ، التي نتمتّعُ بها، نتعزّى عما يساوِرُنا من الآلام؟

ورُحْتُ أتساءلُ عمّا كان سيَحْدُثُ لي لو أنَّ الأمواجَ لم تَدْفَعِ السفينةَ إلى قُرْبِ الشاطىء؟ ماذا كنت أفعلُ لو حُرِمْتُ من هذه البندقيّة. ولم تكُنْ لديَّ هذهِ المؤنُ والأدواتُ والملابسُ. ولم يكُنْ لديَّ سريرٌ أرقُدُ عليهِ وخيمةٌ آوي إليها؟

لقد كنتُ أنعَمُ بكلِّ هذا.. ويمكِنُ لي أن أعيشَ بما عندي عدّةَ سنوات.. صحيحٌ أن البُنْدُقيّةَ لن تفيدَني شيئاً عندما تَنْفَدُ ذخيرتي.. ولكنَّ هذه الذخيرةَ لن تنفدَ سريعاً. على أنَّ هذا الخاطرَ كان يُقْلِقُني أشدَّ القلَقِ كلّما مرَّ في مُخيّلتي. وكلّما أبرقَتِ السماء وقصَفَ الرعدُ.

عليَّ الآنَ أن أصِفَ بالدقّةِ هذا النوعَ من الحياةِ الصامتةِ الغريبةِ التي لم يَعِشْها أحدٌ غيري. دونَ شكّ.

في الثلاثينَ من أيلول وَضَعْتُ قدَمي في هذه الجزيرة المُوْحِشَة أيْ في الوقتِ الذي كانت تسقُطُ فيه أشعّةُ الشمسِ على رأسي بشكلٍ عَمُوديٍّ تقريباً. بعد ذلك بخمسةِ أيامٍ خطَرَ لي أنني

سأفقد حساب الزمن إن لم أقم بتسجيل الأيام التي تمر بي. من أجل هذا أقمت عموداً على الشاطىء في النقطة التي نزلت فيها أول مرة ، وجعلته على شكل صليب ونقشت عليه هذه العبارة :

« في هذا المكان نزلت في ٣٠ ايلول عام ١٦٥٩ ». وعلى أوجه العمود ، الذي كان مربعاً ، كنت أحفر خطاً كلما أقبل يوم جديد. فاذا كان اليوم السابع جعلت العلامة ضعف العلامات الأخرى. واليوم الأول من الشهر أجعل علامته ضعف علامة اليوم السابع.

في الواقع أنني حملت من السفينة أشياء لم أشر إليها بعد ، لقلة أهميتها بالنسبة إلى بقائي على قيد الحياة ، ولكنها ذات فائدة كبرى. من ذلك أنني عثرت على ريش وحبر وورق ، وعلى ثلاثة أو اربعة بركارات وبعض الأدوات المستخدمة في الرياضيات ، ومنظار مكبر وخرائط وكتب تتعلق بالبحرية. وكان عندي كتاب مقدس حافظت عليه بكل عناية ، وخبأته مع أمتعتي عندما غادرت البرازيل. إلى جانب هذا كنت أمتلك بعض الكتب البرتغالية ومجموعتين أو ثلاثاً من التراتيل وعدداً من المؤلفات الأخرى التي حرصت عليها. ولا بد لي أن أذكر أنه كان لدينا على ظهر السفينة هرتان وكلب. فأما الهرتان فقد جئت بهما يوم أن

نقلت أول شحنة من سفينتنا ؛ وأما الكلب فقد قفز إلى البحر ، واستطاع الوصول إلى الجزيرة ، وجاءني في اليوم الثاني لنقلي أول شحنة. وقد ظل إلى جانبي عدة سنوات ، وهو يقوم ، بالنسبة إلي ، بدور الخادم والرفيق. لقد آنس وحدتي ولم يتقاعس لحظة عن أداء ما يستطيع أداءه من الخدمات.. لم يكن ينقصه ، في الواقع ، سوى الكلام..

وقد سجلت كل هذه الدقائق في مذكرتي طوال المدة التي بقي عندي الحبر فيها. فلما نفد لم أستطع أن أصنع حبراً جديداً أو أن أعوضه بمادة أخرى.

بالرغم من تعدد الأشياء التي كانت في حوزتي ، فإن أشياء أخرى كثيرة كنت افتقدها. فلم يكن لدي مثلاً فأس ومجرفة ورفش لحفر الأرض ونقل التراب. كما كانت تعوزني الإبر والدبابيس والخيوط. وبسبب هذا النقص في الأدوات لم تتقدم أعمالي الانشائية إلا ببطء. فقد قضيت ما يقرب من عام حتى انتهيت من إنشاء الحظيرة. فالأعمدة التي جعلتها ركائز كانت من الثقل بحيث كنت أجد مشقة كبيرة في رفعها ناهيك بقطعها ونقلها من الغابات البعيدة.. وقد استخدمت ، في بادىء الأمر ، لحفر الحفر لها قطعة كبيرة من الخشب ؛ ثم استبدلت بها مخلاً من الحديد.. ولكن لم يخف عنائي. غير أنه لم يكن في

استطاعتي أن أتكاسلَ أو أتراجع .

هذا الحاجزُ أستطيعُ أن أسميَهُ الآنَ سوراً بكل ما في الكلمة من معنى. فقد زرَعتُ على أطرافِه ، من الخارج، حشائشَ بكثافةِ قدَمَين . ثم أقمتُ له دعائمَ خارجيةً ، بعدَ انقضاء عامٍ ونصف . ثم زوّدتُه بأغصانِ شجرٍ متصالبةٍ وبأشياء أخرى ، لوقايتي من الأمطارِ الغزيرة .

وقد ذكرتُ قبلاً كيفَ وزّعتُ أمتعتي ومؤَني ، سواءَ داخلَ الحظيرةِ أو داخلَ المغارة . إلا أنَّ عليَّ أن أذكرُ أن هذه الأشياء كانت مكوّمةً دونَ نظامٍ بحيث لم أكُنْ أستطيع أن أتحركَ داخلَ المغارة . من أجل هذا رُحتُ أوسّع مغارتي هذه عرضاً وطولاً . بل وعمقاً لأنّ الصخر كان يطاوعني .

وقد عطفتُ إلى الجهة اليمنى وفتحتُ منفذاً على النور خارجَ السور ، بحيث أصبحَ في إمكاني الدخولُ والخروجُ . وبهذا أصبحَ لديَّ مجالٌ واسعٌ أرتّبُ فيه أمتعتي و.. أثاثي ! أثاثي ؟ نعم ، فقد بدأتُ أقتني أثاثاً من يومِ أن صنعتُ كرسياً ومنضدةً أكتبُ عليها وأتناولُ طعامي !

في حياتي الماضيةِ لم أحاولْ أن أستخدمَ أداةً من الأدوات . ولكنني في أثناء هذا العملِ الدائبِ اكتسبْتُ خبرةً ومهارةً في حقل الصناعة . وقد أيقنْتُ أنّ في استطاعتي أن أصنعَ أيَّ شيءٍ لو توفرَتْ لي المعدّاتُ اللازمة . بل إنني صنعتُ عدةَ

أشياء بواسطة الفرّاعةِ والمِسْحَج . فقد كنتُ أقطعُ الشجرةَ . ثم ألقيها أمامي وأبدأ في ترقيقِ طرَفيْها بالفرّاعة . إلى أن تصبحَ بالكثافةِ المطلوبة . ثم أُعمِلُ المِسْحَجَ في الوجهَيْن حتى يُصْبِحا أملسَيْن . وهكذا أحصلُ على لوحٍ من الخشب . إلا أنّ هذا كان يتطلّبُ الصبرَ الطويلَ والعملَ الدائبَ ؛ بالإضافة إلى أن الشجرةَ لم تكن تُنتج سوى لوحٍ واحد .. ولكنّ هذه كانت هي الوسيلةَ الوحيدةَ الممكنة .

وعلاوةً على الكرسيّ والمِنضدة ، صنعتُ رفوفاً ثبّتُّها على جدرانِ المغارة ، الواحدَ فوقَ الآخر ، وصففتُ عليها أدواتي . كما دققتُ في الجدرانِ أوتاداً علّقتُ عليها بنادقي .

وكانَ كلُّ شيءٍ مرتّباً بحيثُ لا أطلبُ صنفاً إلا وجدتُه في الحال دون عناءٍ أو تفكير .

٧. تجارب روبنسون القاسية

ابتداءً من شهر تشرينَ الثاني ، أيْ بعدَ شهرٍ واحدٍ من الكارثة التي حلّت بنا ، وضعتُ قاعدةً لحياتي اليومية وقرّرتُ ألا أحيدَ عنها ؛ وهي أن أقسمَ يومي بين العملِ والنزهة والنومِ والسلوى المتواضعة . فإذا كان الجو صحواً . خرجتُ

وبندقيتي على كتفي لمحاولة الصيد ، فأقضي ساعتين أو ثلاثاً ، ثم أعود لأعكف على العمل حتى الساعة الحادية عشرة تقريباً . بعد ذلك أتناول الطعام الذي جاد به الحظ وحسن تصرفي . في الثانية عشرة أرقد حتى الساعة الثانية . فإذا نهضت من نومي عدت إلى العمل . وقد طرح تنظيم المغارة مسألة لا بد من حلها وهي أنه ، حتى يسير العمل بشكل مرض ، يتعين وجود ثلاثة أشياء : مجرفة ورفش وعربة للنقل أو سلة . أما المجرفة فقد استخدمت مكانها المخول الحديدية ، التي تستطيع أن تؤدي نفس المهمة رغم ثقلها. وأما الرفش ، وهو مما لا غنى عنه ، فقد صرفت مدة أفكر كيف أجد بديلاً له . وذات صباح لاحظت ، وأنا أتنزه في الغابات ، أن هناك نوعاً من الشجر يشبه ، إلى حد بعيد ، تلك الشجرة التي يسميها البرازيليون « الشجرة الحديدية » لمتانة خشبها العجيبة . واستطعت ، بعد عناء كبير وبعد إتلاف فراعة ، أن أحصل على قطعة من هذه الشجرة القاسية ، نقلتها بصعوبة إلى منزلي لثقلها . ورحت أعمل في هذه القطعة الخشبية لأعطيها شكل الرفش . وقد بذلت جهداً مضنياً كما أنفقت وقتاً طويلاً لصنع هذه الأداة ، نظراً لصلابة الخشب وعدم وجود الأدوات اللازمة .

بقيت السلة أو العربة. بخصوص السلة، لم أجد في الجزيرة

قصباً ولا صفصافاً ولا أي نوع من النبات يصلح لصنع السلال . وأما العربة فإن صنع هيكلها شيء ممكن .. ولكن كيف السبيل إلى صنع دولابها .. ثم ليس لدي الوسائل لتطريق قطعة حديد لصنع محور للدولاب ، على فرض أن الدولاب موجود .. لهذا صرفت نظري عن الاثنين وصنعت وعاء خشبياً على شكل الوعاء الذي ينقل فيه البناؤون الطين .

وقد صرفت في إعداد هذه الأدوات أربعة أيام، دون أن أتنازل ، مع ذلك ، عن نزهتي الصباحية ، التي غالباً ما أعود منها بشيء آكله . وما إن انتهيت من صنع أدواتي حتى عكفت على إعداد المغارة وقد صرفت في ذلك ثمانية عشر يوماً .

وهكذا أصبحت المغارة بالنسبة إلي مخزناً ومطبخاً وحجرة للطعام وبيتاً للمؤن ، نظراً لاتساعها . أما شقة السكن فقد كانت هي الخيمة ، إلا في الأيام القاسية من الشتاء حيث تغزر الامطار بصورة غير عادية. وقد اضطرني ذلك إلى إقامة سقف إضافي فوق الخيمة .

على أن أعمال التحسين هذه لم تتم دون حوادث. ففي يوم من الأيام سقطت من سقف المغارة كمية كبيرة من الحجارة والأتربة ، محدثة صوتاً مخيفاً . ومن حسن حظي أنني لم أكن داخل المغارة وإلا لدفنت وانتهت أيامي . وإزاء هذا

أقمتُ دعامات للسّقف لتأمين سلامتي .

من ناحية أخرى زدْتُ في التحصينات الخارجية وزرعْتُ الحشائشَ حوْلَ الحظيرة ، بحيث لم يعدْ من الممكن تمييزُ مسكني من بعيد . وقد استغرقَ ذلك عدّةَ أشهرٍ ، حتى منتصفِ نيْسان .

ورغمَ مشاغلي تلك كنتُ أقوم بنزُهاتي اليوميةِ ، التي كثيراً ما كانت تتيحُ لي استكشافات جديدةً . وفي إحدى هذه النُّزُهات قتلْتُ جدْياً وأصبْتُ آخرَ في إحدى قوائمه ، واستطعْتُ أن أمْسكَهُ . ولما عدْتُ ضمّدْتُ له ساقَهُ ورُحْتُ أعالجُها إلى أن عادت كما كانت . وتمكّنْتُ من تأهيلِ هذا الجدْيِ ، فقويَ وكبرَ وصارَ يرْعى العشْبَ داخلَ الحظيرةِ دون أن يحاولَ الهربَ . وقد أوحى إليّ هذا النجاحُ بفكرةِ تربيةِ بعضِ الحيوانات وتأهيلها ، لتكونَ مصْدرَ غذاءٍ لي متى استنْفدْتُ ما عندي من البارود .

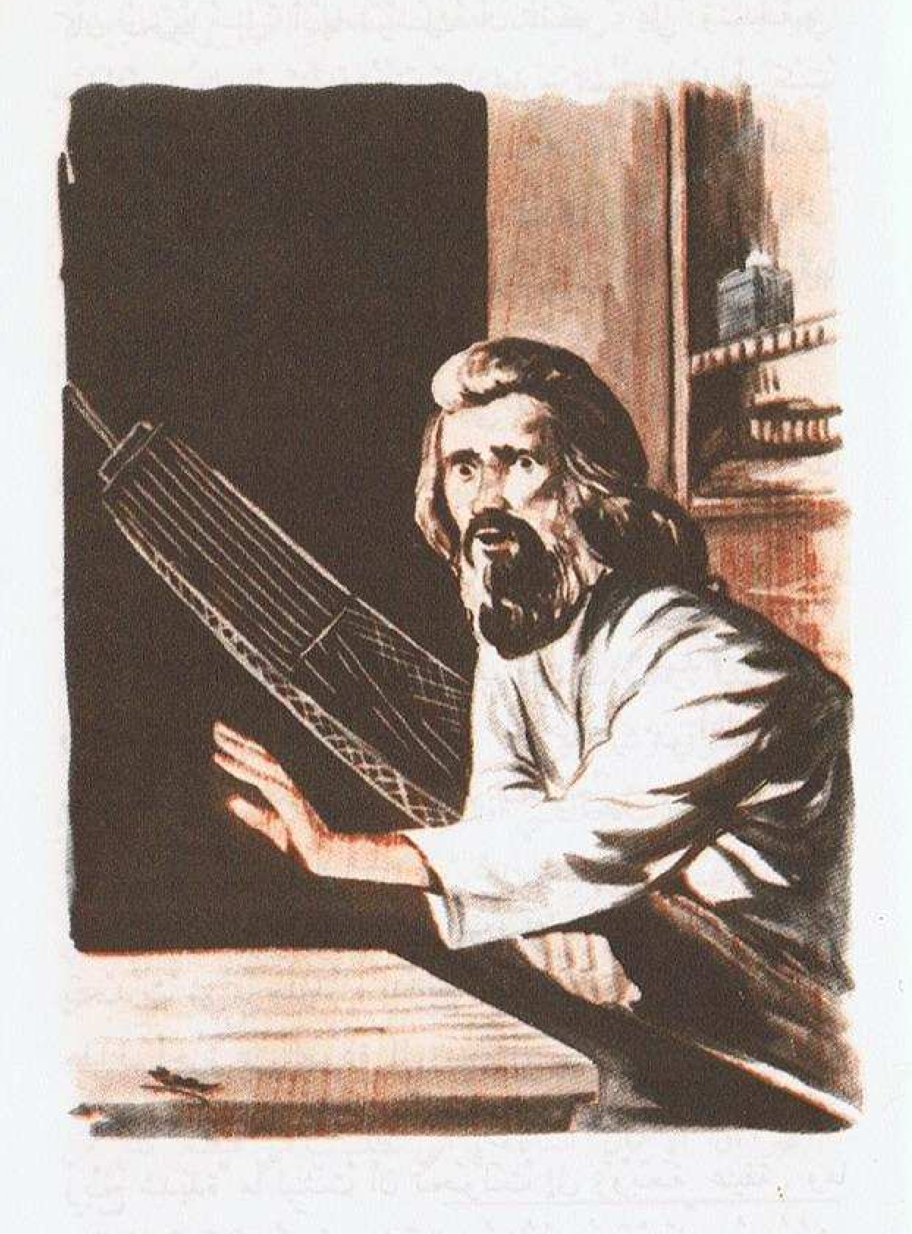
وقد عثرْتُ على نوعٍ من الحمام يبني أعشاشَهُ داخلَ تجاويفِ الصخورِ لا في الاشجار . فحملْتُ بعضَ الأفراخِ ورُحْتُ أربيها ، حتى كبرتْ . ولكن ما إن اشتدّتْ اجنحتُها حتى طارتْ ولم تعدْ . وكان السببُ الرئيسيُّ هو عدمَ وجودِ غذاءٍ أقدّمُهُ لها . على أني استطعْتُ أن اكتشفَ البيوتَ التي لجأتْ إليها ، فكنت انتظرُ أوانَ تفريخها ، فآخذ الفراخ لتكونَ

فاكهةَ مائدتي .

ورغْمَ كلّ ما لديّ كنتُ أجدُ أنّ منزلي يحتاج إلى أشياء كثيرة لا أحْسِنُ صُنْعَها . مثالُ ذلكَ أنني لم أتمكّنْ من صُنْعِ برميلٍ وإحاطتِهِ بأطواقٍ بحيث يحْفظُ الماءَ . لقد أوضحتُ ، فيما تقدّمَ ، أنني حملتُ برميلاً أو اثنيْنِ من السفينةِ ، ولكنّني لم انجحْ في صُنْعِ برميلٍ جديدٍ مماثلٍ .

مسألةٌ أخرى واجهتْني ، وهيَ الاستضاءةُ . فقد وجدْتُ أنّه من غير الطبيعيّ أن آويَ إلى فراشي مُنْذُ أن يهْبطَ الليلُ . وقد وجدْتُ أن الوسيلةَ الوحيدةَ لتلافي هذا النقصِ هي أن استغلّ شحْمَ الماعز الذي أصطادُهُ . وقد جمعْتُ كميةً من هذا الشحم . ثم صنعْتُ صحناً من الطين جفّفْتُهُ في الشمس ؛ ثم صنعْتُ شمعاً من الشّحم جعلْتُ فتيلَهُ من خيوط القنّب . وهكذا استطعْتُ أن أستضيء خلالَ الليلِ ، وإنْ كانَ هذا الضوءُ ضعيفاً إلى حدٍّ بعيد .

واتّفقَ لي وأنا أفتّش بين أمتعتي أن عثرْتُ على كيس كان فيه حبٌّ للطّيور ، وهو من بقايا الرّحلةِ قبلَ الأخيرة . ولما فحصْتُ الحبّ وجدْتُ أن الجرذانَ قد أكلَتْهُ ولم يبْقَ منه سوى القُشورِ . ولما كنتُ محتاجاً إلى الكيس ؛ فقد نفضْتُهُ في الخارج عند قدَمِ صخرة . وكان هذا قُبَيْلَ موْسم الأمطار . ومرّ شهْرٌ على ذلكَ ونسيتُ الحادثةَ لتفاهتِها . غير أنني



«فبقيت مُسَمَّراً في مكاني والدم جامدٌ في عروقي ..»

لاحظْتُ ذاتَ صباح أن سيقانَ نباتٍ قد ارتفعَتْ قُرْبَ الصخرة. فظَنَنْتُ في بادىء الأمر أنَّ هذا النباتَ على شاكلة النباتاتِ الموجودة في الجزيرة والتي لا أعرِفها. ولكنْ كم كان دَهَشي وفرَحي عظيمَيْن عندما ظَهرَ عَدَدٌ من سنابلِ الشَّعير، التي تبيَّنَ لي، بَعْدَ نُضجِها، أنها بمثلِ جَوْدَةِ الشَّعير الانكليزيِّ.

بطبيعةِ الحال جنَيْتُ هذه الثروةَ بكلِّ عنايةٍ في مَوْسِمِها الذي يَقَعُ في أواخرِ حزيْرانَ. وتركْتُها الى مَوْعِدِ البَذْرِ قبلَ هُطول الامطار. وظَلَلْتُ أفعل ذلك طوالَ أربعِ سنواتٍ، حتى بدأتُ استخدِمُها في طعامي. إلى جانب ذلك كان لاَ يزالُ عندي قليلٌ من الأرزِّ؛ وقد عَمَدْتُ إلى زرعِهِ وجنَيْتُ عدداً من السَّنابل.

من ناحيةٍ أخرى، لم أكَدْ أنتهي من أعمال التحصينِ والبناء، حتى وَقَعَ حادثٌ ذُوْ خَطَرٍ غيرِ عاديّ، أوشَكَ أن يَقْضِيَ على كل ما بَنَيْتُ ويقضيَ عليَّ أنا أيضاً. فبينما كنتُ أعملُ وراء خيمتي رأيتُ فجأةً أن الارضَ تنهارُ من أعلى الجبل، وسمعتُ صوتَ تَقَصُّفٍ في عمودَيْن من الأعمدة التي دَعَمْتُ بها سَقْفَ المغارة. فما كان مني إلاَّ أن جرَيْتُ إلى سُلّمي فتسلَّقْتُها في سُرْعةِ البرق، لأنزلَ من الطَّرَفِ الآخرِ وأبتعِدَ عن مكانِ الخَطَر، وأنجُوَ من قِطَعِ الصخور التي

كان يُخيَّلُ إليَّ أنها تُوشِكُ أن تنقضَّ عليَّ وتسحقني سحقاً. وما إنْ وضعتُ قدمي خارجَ السُّورِ حتى أدركتُ حقيقةَ ما يحدُثُ: لقد كانت تلك هزَّةً أرضيةً. مادتِ الأرضُ تحتي ثلاثَ مرّاتٍ، وبين الهزَّةِ والهزَّةِ ثماني دقائقَ تقريباً. والواقعُ أن هذه الهزّاتِ كانتْ من العنفِ بحيثُ أنها كانتْ قادرةً عـلى تحطيمِ أعظمِ الأبنيةِ. فلقدْ رأيتُ كُتْلَةً صخريةً هائلةً تنهارُ على بُعْدِ نِصْفِ ميـلٍ، مُحْدِثةً دويّاً كدويِّ الصواعق. بل إنَّ المحيطَ نفسَهُ بدا هائجاً بشكلٍ غيرِ طبيعيٍّ بسبب هذا الحدَث.

كانت هذه هيَ المرَّةَ الأولى التي أشهدُ فيها مثلَ ذلك. فبقيتُ مُسمَّراً في مكاني والدَّمُ جامدٌ في عروقي من شدَّةِ الخوف. ولم يُخرِجْني دويُّ الصخورِ المتدحرجةِ من أعلى الجبلِ والمتساقطةِ في المحيط، أقول لم يُخرِجْني من ذُهُولي إلا ليَزيدَني رُعْباً على رُعب.

على أنَّ انقضاء فترةٍ من الوقت، بعد الهزَّةِ الثالثةِ، دون أن يَحْدُثَ شيءٌ جديدٌ، بدأ يعيدُ إليَّ شيئاً من الشجاعة. ومعَ هذا لم أجرُؤْ على العودةِ إلى خيمتي.

بعد هذا بدا الجوُّ خانقاً. واكتستِ السماءُ بالسُّحُب. ثم هبَّتْ ريحٌ شديدةٌ ما لبثتْ أن تحوَّلتْ إلى زوبعةٍ عنيفة. وما هيَ إلا لحظاتٌ حتى راحَ البحرُ المُزْبِدُ يندفِـعُ بعنفٍ نحوَ اليابسة، إلى درجةِ أنَّ بعضَ الأشجارِ اقتُلِـعَ من الجذْر. ودامَ هذا الهياجُ ثلاثَ ساعات. ثم هدأتِ الرياحُ وهطلتِ الامطار.

وخطرَ لي أنَّ تعاقُبَ هذه الأحداثِ كان نتيجةً للهزَّةِ الأرضية، وأنَّ سقوطَ المطرِ علامةٌ على انتهاء كلِّ شيء: فعُدْتُ إلى خيمتي.. ولكنَّ غزارةَ الأمطار جعلتْني ألجأ إلى المغارة، رغْمَ خوْفي من أن تنهارَ فوق رأسي.

وظلَّتِ الأمطارُ تهطُلُ حتى أحدَثَتْ طُوفاناً؛ فاضطررْتُ إلى حفْرِ قناةٍ عبرَ تحصيناتي حتى لا تتجمَّعَ المياهُ في الداخل وتُغْرِقَ الخيمة. وبعد هذا العمل الشاقِّ تحت المطر عُدْتُ مُطْمئِناً، فغيَّرْتُ ملابسي، وأخذْتُ جرْعةً من «الروم»• لأستعيدَ قُوَّتي وشجاعتي.

هذه الأحداثُ جعلتْني أفكِّرُ في بناء مقرٍّ جديد. ما دامت الجزيرةُ عُرْضةً للهزّاتِ الأرْضية؛ وإلاَّ تحوَّلتِ المغارةُ إلى قبرٍ لي في يوم من الأيام. والكوخُ الجديدُ يجبُ أن يكونَ في مكانٍ طلْقٍ مكشوف، على العكس من المسكنِ السابق: كما أنَّهُ يحتاجُ إلى تحصيناتٍ مماثلة.

غيرَ أنَّ الأعمالَ السابقةَ، التي تطلَّبتْ مني قطْعَ كثيرٍ من

• نوع من الخمر.

الأشجارِ والأخشاب، قد تَثَلَّمَتْ جميعَ فرّاعاتي، فلم تَعُدْ صالحةً لأعمال جديدة، إلاَّ إذا وَجَدْتُ طريقةً لشَحْذِها.

وهكذا رُحْتُ أُعمِلُ الفكرَ حتى تمكَّنْتُ من اختراع دولابٍ يتَّصِلُ به حَبْلٌ وأستطيعُ أن أديرَهُ بقَدَمي، فتظلُّ يداي حُرَّتَيْن تحرِّكانِ الفرّاعةَ على الحَجَرِ الدائر. ولمّا كان حَجَرُ الشَّحذِ الذي لَدَيَّ كبيراً وثقيلاً، فقد قَضَيت أسبوعاً كاملاً في صُنْعِ هذه الآلةِ لتكونَ من الجَوْدةِ والمتانة بحيثُ تحمِلُهُ وتُسْعِفُني في أعمالي.

وفي صباحِ أوّلِ أيار، بينما كنتُ أنظرُ ناحيةَ البحر، رأيتُ شيئاً ضَخْماً على الشاطىء، يُشْبه البرميل. فلمّا اقتربْتُ منه وجَدْتُ أنهُ برميلُ بارود. وكان بجانبِهِ بعضُ حُطامٍ من سفينتنا الغارقة. ونظرْتُ بعيداً فرأيتُ السفينةَ وقد ظهرَتْ مرَّةً أخرى؛ وأصبحَتْ قريبةً جداً بحيثُ أستطيعُ أن أصِلَ إليها وَقْتَ الجَزْر، دُونَ حاجةٍ إلى السباحة كما حدَثَ في المرَّة الأولى. وقرَّرْتُ أن ازورَها، فقد أجِدُ ما يفيدني. أما البارودُ فقد تجمَّدَ وأصبحَ في صلابة الصَّخْر؛ ولكنَّ هذا لم يُؤخِّرْني عن دَحْرَجَةِ البرميلِ حتى مسكني.

وقد أسعفَني هدوءُ البحرِ حتى منتصفِ حزَيْرانَ فاستطَعْتُ بواسطةِ المنشارِ ومُخْلٍ حديديٍّ متين، أن أحصُلَ على كميَّةٍ وافرةٍ من الأعمدةِ والألواحِ الخشبيةِ وقِطَعِ الحديدِ وغيرِ

ذلك. كنت أعمَلُ من بدايةِ الجَزْرِ إلى نهايتِهِ دونَ توقُّف. وفي ساعاتِ المَدِّ كنتُ أطوفُ في الجزيرةِ سَعْياً وراءَ الغذاء.

في السادس عَشَرَ من حزَيْرانَ رأيْتُ سُلَحْفاةً للمرَّةِ الأولى. ولم تكُنْ هذه الصُّدفةُ ناشئةً عن نُدْرَةِ هذا الصِّنف. بل لأنني لم أكن أذهَبُ إلى الطَّرَفِ الآخَرِ من الجزيرة. حيث وجَدْتُ، فيما بعدُ، آلافاً من هذهِ الحيوانات.

كنتُ لا أذوقُ سوى لحمِ الطَّيْر والماعز لذلكَ وجَدْتُ في هذا اللحم الجديدِ لذَّةً لا حدَّ لها. خاصةً وأنني عثَرْتُ على بيضٍ داخلَ السُّلَحْفاة.

في الثامن عشرَ أمطرَتِ السماءُ طولَ النهار، فلم أغادِرْ منزلي. وقد شعَرْتُ أن الجوَّ باردٌ على غير عادتِهِ في هذا الوقت من السَّنة؛ وشعَرْتُ بقُشَعْريرةٍ في أنحاء جسدي. وفي اليوم التالي كنتُ في حالة سيئة؛ فأصابتني رِعْدَةٌ، ثم ارتفعَتْ حَرارتي. وظلَّتْ خمسةَ أيامٍ تنتابُني تلك النَّوباتُ ثم يَجْري مني العَرَقُ بغزارة. أأُصابُ هكذا دون أن أجدَ كائناً بشرياً بجانبي يَمُدُّ إليَّ يَدَ المعونة؟

في السادس والعشرينَ وجَدْتُ أنني أحسَنُ حالاً؛ ولكنني كنتُ أشعُرُ بضعفٍ شديد. ومع ذلكَ أخذْتُ بُنْدُقيَّتي ومَضَيْتُ إلى الصيد، وقد تمكَّنْتُ من صَيْدِ عنزةٍ شَوَيْتُ شيئاً من لحمها؛ وكنتُ أفضِّلُ أن أسلِقَ بعضاً منه، فقد يُفيدني

الحساءُ الساخن . ولكنْ لم يكنْ لديَّ قِدْرٌ ، لسوء الحظ .

وفي اليوم التالي عاوَدَتْني الحُمّى بشِدّةٍ . وكِدْتُ أموتُ عطَشاً ولكنني لم أجِدِ القُدْرَةَ على الذَّهابِ لجَلْبِ الماء .

وظلَلْتُ على تلك الحالِ أياماً . ثم ذكرْتُ ذاتَ مساءٍ أن البرازيليينَ يعالجون أنفسَهُم بالتَّبغ . ففتَّشْتُ عن التَّبغ الذي كان عندي ، وأخرجْتُه . ولكنني لم أكُنْ أعرِفُ كيف أستخدِمُهُ . كان ورَقُهُ أخضرَ ؛ فأخذْتُ قطعةً ومضغْتُها فأدارَتْ رأسي . ونَقَعْتُ ورقةً أخرى في كأس من « الروم » . ثم وَضعْتُ قطعةً فوق الجمْر ورُحْتُ استنشقُ دُخانَها . بعد ذلك تناولتُ كأسَ « الروم » ، ولم ألبَثْ أن غرقْتُ في نومٍ عميق لم أنهَضْ منه إلا في نحوِ الثالثة بعد الظهر . ويبدو لي أنني نمتُ حتى اليومِ التالي ولم أُفِقْ إلا بَعْدَ ظُهْرِ اليوم الثالث ، إذِ اكتَشَفْتُ فيما بعدُ أنني اخطأْتُ بيومٍ في حساب الأيام ، ولعلَّه هُوَ هذا اليومُ الذي فاتني .

على أيِّ حالٍ عندما افقْتُ وَجدْتُ أنني استعَدْتُ قُوَّتي بشكل واضح ، واستراحتْ معِدَتي ، وعادَتْ إليَّ الشَّهيَّةُ .

وفي اليوم التالي اختفَتِ الحُمّى . فحملْتُ بندقيّتي وخرَجْتُ ولكنني لم أبتعِدْ كثيراً . وقد عُدْتُ بطائرَيْن بحريَّيْن يُشبهان الإوزّ . ثم عاودْتُ نفسَ العلاج ؛ ولكنني لم أستعِدْ صِحّتي تماماً إلا خلالَ أسابيعَ .

٨. رحلات مختلفة

مرَّ عليَّ عشَرةُ أشهرٍ وأنا أعيشُ في هذا المكان المُوحِشِ الكئيبِ ، الذي لا أعتقدُ أنَّ كائناً بشرياً غيري وَضعَ قدَمَهُ فيه . ولما كان مَسْكني مُحصَّناً وخفيّاً فقدْ رأيْتُ أنَّ في استطاعتي أن أتغيَّبَ عدَّةَ أيامٍ ، إذ كانَتْ بي رغبةٌ شديدةٌ في التعرُّف على الجزيرةِ بِرُمَّتِها .

في الخامسَ عشرَ من تَموزَ بدأتُ رَحلاتي . في البدايةِ إلى الجُوْن الذي أنزلْتُ فيه أطوافي ، وسِرْتُ مع النّهر ، فوجدْتُه في تلكَ الفتْرة ، عبارةً عن جدْولٍ صغير ، ولكنَّ ماءَهُ صالحٌ للشُّرب . وقد وَجدْتُ على أطرافِهِ أعشاباً خضراءَ تتصاعدُ إلى أعلى . وعثَرْتُ على تبْغٍ مرتفعِ الساقِ جداً ، كما رأيْتُ أنواعاً أخرى من النباتات التي لا أعرفُها .

في اليومِ التالي قصَدْتُ نفْسَ الناحيةِ ، ولكنّني تخطّيْتُ منْبعَ النهرِ الذي وَجدْتُ أنه لا يَبْعُدُ كثيراً . وقد رأيتُ أنَّ الارضَ ، بعد هذهِ الحدودِ تكتسي بالأشجار . واكتشَفْتُ أن هناكَ أشجاراً مُثمرةً . وكان البطيخُ الأصفرُ يملأُ الأرضَ . ومن ضِمْنِ الثِّمارِ العِنبُ الملوّنُ الذي تدَلّتْ عناقيدُهُ تامّةَ

النُّضج . وقد أدهشني هذا الاكتشافُ بقدْرِ ما أفرحَني .

قضَيْتُ هناك طُولَ النهار ؛ ولما جاء المساءُ ، لم أرْغَبْ في العَوْدة إلى البيت ، بل فعَلْتُ كما في أوَّلِ نزولي في الجزيرة ، أي تسلَّقْتُ شجرةً كثيفةً ونمْتُ فيها .

وفي الصباح عُدْتُ إلى المسير ، فقطعْتُ نحوَ أربعةِ أميالٍ متجهاً نحوَ الشمال ، تاركاً ورائي وعن يميني سلسلةً من الهضاب . وما لبثْتُ أن وَجدْتُ نفسي في منطقةٍ معتدلةِ الهواء تكْسُوها الخُضْرَةُ والأزهار ، حتى لكأنَّها بستانٌ عمِلَتْ فيه يَدُ الانسان . وانحدَرْتُ قليلاً في هذا الوادي الرائعِ حيثُ توقَّفْتُ لأمتّع نفسي بجماله أطولَ فترة ممكنة .. لمَ القلقُ والاكتئاب؟ أليس كلُّ هذا مِلْكي ؟! لقد وَجدْتُ كثيراً من الأشجار المثمرة كالبرتقال والليمونِ الحامضِ وغيرِ ذلك . وأخذْتُ أقطفُ الثمارَ وأكوِّمُها .

وفي اليوم التالي عُدْتُ بكيسَيْن . صنَعْتُهُما لهذا الغرضِ ، لأنقلَ محصولي . غير أني وَجدْتُ أن كومةَ العِنَبِ قد بُعْثِرَتْ هنا وهناك والتُهِمَ أغلبُها ، فاستنْتَجْتُ من ذلك وجودَ حيوانات مفترسةٍ في الجوار . ولهذا لجأتُ ، فيما يتعلّق بالعِنَب ، إلى طريقةٍ أخرى : وهي أن أقطُفَ العناقيدَ وأضعَها فوق الأشجارِ كيما تجفَّ في الشمس وتتحوّل إلى زبيب .

وخطَرَ لي ، أثناءَ عودتي ، أن أنقلَ سكَني إلى هذا الوادي الخصيب ، لأنَّ المكان الذي اتخذْتُه مقرّاً لي هوَ أسوأ مكانٍ من هذه الناحية . وظلَّ هذا المشروعُ يدورُ في رأسي . ولكنني عندما أخذْتُ أبحثُ المسألةَ في تعقُّل ، وجدْتُ أن قُرْبي من البحر شيءٌ هامٌ لا ينبغي أن اتنازلَ عنه . فالأقدارُ التي قذَفتْني على هذهِ الأرضِ قد تحملُ لي رفاقاً أتعزّى بهم واتبادَلُ معهم العَوْنَ . أما إذا استقْرَرْتُ في وَسَطِ الجزيرةِ فسيكونُ مقْضياً عليَّ أن أعيشَ وحيداً إلى آخرِ أيامي .

ومعَ هذا فقد جذبني جمالُ المنطقة وطِيْبُ هوائها ووفْرةُ خُضرتها فقضيْتُ فيها ما تبقّى من شهر تَموز . وقد ابتنيْتُ كوخاً صغيراً أحطتُهُ بحظيْرةٍ مُحصَّنةٍ على شكل التحصينات في سكَني الآخرِ الذي لم أتنازلْ عنه .

ولكن هُطولَ الأمطار عجَّل في عودتي إلى مغارتي ، ومعي العِنبُ المجفَّفُ الذي بلغ نحوَ مئتي عنقودٍ وكان لي خيرَ زاد. ودامتِ الأمطارُ من منتصَفِ آب حتى منتصَفِ تَشرينَ الأوَّل فلم تتوقَّفْ إلا في أحيانٍ قليلة .

خلالَ هذه الفترةِ الطويلةِ من الاختباء أوشكَتْ مؤَني أن تنفَدَ ، فجازَفْتُ بالخروج مرتَيْن عُدْتُ منهما بجدْيٍ وسُلحْفاةٍ كبيرة فيها عَدَدٌ وافرٌ من البَيْض . فصرْتُ أفطِرُ بعنُقودٍ من الزبيب ، وأتغدّى بشريحةٍ مشويّةٍ من

لحم الجدي أو السلحفاة ، وأتعشى ببيضتين أو ثلاث من بيض السلحفاة .

وحتى أتسلى في محبسي خلال الامطار ، أخذت في توسيع مغارتي ، مواصلاً النقب في جانبها ، حتى أحدثت فيها فتحة تؤدي إلى خارج السور .

وجاء يوم الثلاثين من أيلول ، ذكرى نزولي المشؤوم على هذه الجزيرة . فقضيت هذا اليوم في صوم عن الطعام دام اثنتي عشرة ساعة ، وفي عبادة كنت أطيل فيها السجود تذللاً وخضوعاً . وبعد انتهاء الصوم تناولت قطعة من البسكوت وعنقوداً من العنب المجفف .

بعد مدة لاحظت أن الحبر ، الذي لدي ، قد نقص زيادة عن الحد المعقول ، وأن علي أن أقتصد في استخدامه ؛ لهذا قررت ألا أسجل إلا الأشياء البارزة ، لا كما كنت أفعل ، حيث لا أترك كبيرة ولا صغيرة إلا وصفتها بدقة .

على أي حال كانت التسجيلات الأولى مفيدة لي ؛ فقد عرفت من خلالها الأحوال الطبيعية على مدار السنة ، فلم أعد أفاجأ مفاجأة بالامطار أو بفصل الجفاف أو بتقلبات الجو . وهكذا بذرت ، قبيل هطول الأمطار محصولي من السنابل . ولكي أكون دقيقاً أقول إنني بذرت ثلثي ما لدي من السنابل تحسباً للطوارىء . ومن أجل هذا اخترت بقعة صالحة من الأرض ،

ثم قلبت تربتها بواسطة رفشي الخشبي ، وقسمتها إلى قسمين .

وقد كان حذري في محله . لأن حبوبي لم تنتج شيئاً . وكانت هذه التجربة درساً مفيداً لي . فعمدت إلى إعداد أرض قرب المنزل الآخر ، وبذرت جزءاً من الحب في شهر شباط . وهكذا جنيت محصولاً وفيراً عوضني أضعاف ما خسرته .

لما عدت ، بعد شهري آذار ونيسان ، إلى منزلي الريفي — لنسميه كذلك — وجدت أن الفروع التي أحطت بها المنزل قد امتدت لها جذور في الأرض ونبتت لها أغصان مكسوة بالأوراق . فما كان مني إلا أن عمدت إلى تنظيمها وقطع الفروع التي لا فائدة منها . لتكون على مستوى واحد .

وفي مدى ثلاث سنوات ظللت هذه الأشجار فناء المنزل ، الذي يبلغ قطره نحو عشرين قامة ؛ وكانت من الكثافة بحيث يمكن لي قضاء الفصل الحار في هذا المكان ، وأنا في غاية الراحة .

ولم أكتف بذلك . بل حملت فروعاً من هذا النوع من الشجر لأحيط بها حظيرتي الأولى . وقد تركت بين السور القديم وصف الفروع الجديدة مسافة ثماني قامات . وسرعان ما تحولت هذه الفروع إلى أشجار وارفة حجبت المسكن

وكانت له بمثابة سور جديد .

وقد سبق لي أن جربت صنع السلال ، فلم أنجح ؛ وذلك لعدم وجود النبات الملائم . لقد كنت في حاجة إلى سلال لجمع مؤن كافية من أجل الشتاء ، حتى لا أضطر إلى الخروج تحت الأمطار لطلب الطعام ، مما يضر بصحتي ، كما علمتني التجربة . وقد لاحظت أن أغصان الشجر الذي اكتشفته متينة ، من ناحية ، فلا تنكسر ، لينة ، من الناحية الأخرى ، بحيث لا تختلف عن غصون الصفصاف او السوحر الانكليزي* . وهكذا قطعت كمية كبيرة من القضبان ، من هذه الأشجار ، وحملتها إلى مسكني الأول حيث فرشتها في الحظيرة لتجف ، ومن ثم نقلتها إلى المغارة لأصنع منها سلالاً خلال الفصل المطير .

وجاء الصيف ، وعاودتني فكرة استكشاف الجزيرة ، وهو المشروع الذي لم أتممه ، بل أوقفته حيث بنيت مقري الصيفي . وهكذا حملت بندقيتي ، وفراعة من فراعاتي مع كمية كافية من الخردق والبارود ؛ وتزودت بعدة عناقيد من العنب ، وبدأت المسير وكلبي ورائي . وعندما قطعت الوادي انكشف أمامي البحر من الجهة الجنوبية . ولما كان الجو

* نوع من الصفصاف يستخدم في صنع السلال .

نقياً فقد أبصرت اليابسة من الناحية الأخرى . لم أكن أعرف إن كانت هذه الأرض متصلة بالقارة أو أنها جزيرة كجزيرتي . كل ما هنالك أنها . حسبما أرى . مرتفعة جداً . وأنها تمتد من الغرب إلى جنوب الغرب . ولا تبتعد أقل من خمسة عشر فرسخاً . والذي أستطيع أن أتكهن به بخصوص موقع هذه الارض . هو أنها تابعة لأميركا ومجاورة للبلاد الإسبانية .

هذا المنحدر من الجزيرة ظهر لي مختلفاً عن المنحدر الآخر . فقد كان مكسواً بالخضرة والأزهار والغابات العالية الكثيفة . وقد رأيت عدداً كبيراً من الببغاوات . فآليت على نفسي أن أمسك واحدة منها لتأهيلها وتعليمها . وقد نجحت في ذلك . وبعد سنوات كانت هذه الببغاء تناديني باسمي : روبنسون . روبنسون !

لقد أمتعتني هذه الرحلة إلى أقصى حد . واكتشفت فيها أنواعاً جديدة من الحيوانات . وكان مأكلي لحم الجدي والحمام ، وإذا أضفت العنب . فإني أتحدى أي مائدة في انكلترا ! وعندما وصلت إلى شاطىء البحر وجدت أن السلاحف فيه لا تحصى عدداً . في حين أن المنطقة التي أقطنها لم أعثر فيها إلا على ثلاث سلاحف طوال إقامتي .

ولكن .. بالرغم مما تتمتع به هذه الناحية من الجمال والغنى

فإنني لم أشعرْ بأيِّ رغبةٍ في سُكناها وتَرْكِ منزلي الأولِ الذي
أَلِفَني وأَلِفْتُهُ . فمعَ استمتاعي بهذه المناظرِ الخلابـة ،
وإعجابي بها غايةَ الاعجاب ، فالشعورُ الذي يخالجُني هو أنني
في بلادٍ غريبة .

وسِرْتُ في محاذاة الشاطىء مسافةَ نحوٍ من اثنتيْ عشَرَ ميلاً ؛
ثم رأيتُ أن أوقفَ عمليةَ الاكتشافِ وأعودَ ، فركزْتُ عصا
طويلةً على الشاطىء لتكونَ بمثابةِ علامةٍ لي .

في العودة اخترْتُ طريقاً غيرَ التي جئتُ منها. وكان هذا خطأً
مني . فقد وجدْتُ نفسي في وادٍ تحيطُ به المرتفعاتُ المكسُوَّةُ
بالغابات ، فلم يكُنْ من وسيلةٍ لمعرفة الاتجاهِ الصحيحِ نحو
مقرِّي سوى الشمس . ولكنَّ الجوَّ ظلَّ غائماً خلالَ أربعةِ أيام
متوالية ؛ فاضطُرِرْتُ إلى العودةِ من حيثُ أتيتُ ، لأسلكَ
الطريقَ التي عرَفتُها .

وبينما أنا سائرٌ إذا بي أرى كلبي يقبِضُ على جدْيٍ صغير .
فخلَّصتُهُ من بينِ أنيابه وصنَعْتُ له طوْقاً وجررْتُهُ ورائي .
لكم حلُمْتُ بأن أربيَ زوجاً من الماعز ليتكوَّنَ عندي قطيعٌ
يكفيني مؤونةَ التفتيشِ عن الغذاء .

كانت لذَّتي عظيمةً عندما وصلْتُ إلى مقرِّي، بعدَ غيابِ
شهرٍ ، وأرحْتُ أعضائي على سريري المعلّق . فلقد تعبْتُ من
الطوّاف المستمرّ والمبيتِ في الأشجار ؛ وقررْتُ ألاّ أطيل

غيابي على هذا النَّحوِ في المرات المقبلة .

أما الجدْيُ ، الذي تركتُه مربوطاً في حظيرةِ المقرِّ الصيْفي :
فقد رأيْتُ أن أذهبَ لأعودَ به ، بعد أن نلتُ قسطِي من
الراحة . كان الجوعُ قد نال منْهُ فأصبحَ أطوعَ من الأول .
فصِرْتُ أُطعِمُهُ وأداعبُهُ كلَّ يوم حتى ألِفني وصار
يتبَعُني مثلَ كلبي .

وأقبلَ الخريفُ بأمطاره، كما أقبلَ بالذكرى الثانيةِ لغرَقي.
وقضيْتُ هذا اليومَ – يومَ الذكرى – بصورةٍ احتفالية
كالمرَّة السابقة . لقد أصبحْتُ الآنَ اكثرَ تقديراً لما قدَّمتْ
لي الحياةُ من الهِبات . أما في الماضي فكثيراً ما كانت تهاجمُني
الافكارُ السوداء عندما انظرُ إلى الجبال الصامتة من حولي ،
والمحيطِ الذي يقوم حاجزاً أبدياً بيني وبين عالمِ الأحياء ،
وفي تلك الساعات الكئيبة كنتُ أبكي كالطِّفل الصغير . وأحياناً
كانت تنتابُني تلك الحالاتُ وأنا في زحْمةِ العمل ؛
فيستوْلي عليَّ يأسٌ قاتلٌ ، وأترُكُ ما في يدي ، ثم أجلس
ساهماً أفكرُ في بؤسي وحرِماني ووحْدَتي القاتلة . وقد يطُولُ
مجلسي ذاكَ بِضعَ ساعات . أما في بداية العام الثالثِ فقد
وجدَتِ السَّكينةُ طريقَها إلى نفسي ؛ لانني أصبحتُ أملأُ
يوْمي بالعمل المثمرِ وأقرأُ الكتابَ المقدَّسَ الذي يخفِّفُ متاعبي
النفسيةَ إلى أبعدِ الحدود .

٩. تعلم كل شيءٍ

جاء شهرُ تَشْرينَ الثاني وأنا توّاقٌ لأن أرى محصولي من الشعير والأرزّ. كانت رقعةُ الارض ، على صِغَرِها ، تُبَشِّرُ بانتاج جيِّد ، بعْدَ أن خسِرتُ موسماً بكامله ، إذْ بُذِرَتْ في أيام الجفاف. إلا أن آفاتٍ جديدةً كادت تقضي على هذا الموسم أيضاً. تلك هي المِعْزى والحيواناتُ التي وَصَفْتها بأنها تُشْبه الأرانب. فهي عندما تذوَّقتِ النبَتات الأولى استطابَتْها ، فأقامتْ بالقرب من الحقل ، وصارت لا تَنْبُتُ نبتةٌ جديدةٌ إلا قضَمَتْها. فما كان مني إلا أن سوَّرْتُ الأرضَ ، ورُحْتُ أصلّي لهذهِ الحيواناتِ وأقتل ما أستطيع منها. وكنتُ أربط كلبي ليْلاً بحبلٍ طويل في الحقل ، فكان ينبحُ عليها ويقفزُ هنا وهنالك. ولما رأت ألاَّ فائدةَ من البقاء ، ابتعدَتْ عن المكان ، بعد أن قضَتْ على جزء من المحصولِ وهو لا يزال أخضرَ طرياً.

وما إن نضجتِ السنابلُ حتى واجهْتُ عدواً جديداً يمكن أن يقضيَ نهائياً على ما تبقّى من الانتاج : فبينما كنتُ أطوفُ في الحقل ذاتَ يومٍ إذا بي أرى بعضَ العصافير ؛ فأطلقتُ بندقيّتي عليها ، فإذا برفوف من مئات العصافير ، التي كانت مختفيةً بين

السنابل ، ترتفع دفعةً واحدة كأنها سحابةٌ. هذا المشهد ملأ نفسي بالخوف ؛ فقد أيقنْتُ أن موسمي سيضيع تماماً ، وأنَّ الآمالَ التي بنَيْتُها ستتبدَّد. وبينما كانت تتلاعبُ بي المخاوفُ كنتُ أفكرُ في وسيلة لحماية حقلي ، فلا أجِد. ومعَ ذلك فقد قرَّرْتُ أن أفعلَ كلَّ شيء لأصُونَ هذه الثَّروَةَ ولو تطلَّبَ مني ذلكَ أن أقومَ بالحراسةِ ليلَ نهار.

وحشَوْتُ بندقيّتي مرةً أخرى ، وتراجعْتُ. فإذا بالعصافيرِ التي كانت تنتظرُ في الأشجار المحيطةِ بالحقل ، تنزِلُ واحداً تِلْوَ آخرَ. ولم أنتظِرْ حتى تتجمَّعَ كلُّها ، بل تقدَّمْتُ بمحاذاة السِّياج ، فلما طارَتْ أطلقتُ عليها النارَ ، فرميتُ ثلاثةً منها. وقد داخلَني حِقْدٌ عليها ، فصنَعْتُ بها ما يَصْنَعُون ، في انكلترا ، باللُّصوص الذين يُعلِّقونهم بعد الإعدام لِبثِّ الرُّعْبِ في نفوسِ أشباهِهِم. وهكذا فعلْتُ فقد علَّقْتُ العصافيرَ الثلاثةَ المقتولةَ على أغصانِ الشَّجَر ؛ فكانَ لهذهِ الفزّاعةِ أثرٌ كبيرٌ إذ أنَّ العصافيرَ هجَرتْ هذه الناحيةَ من الجزيرة بصورةٍ نهائية. وهكذا جنَيْتُ محْصُولي في أواخرِ كانونَ الثاني ، وهي الفترةُ التي يتمُّ فيها الموسمُ الثاني في تلكَ المناطق.

قبل أن أبدأ العملَ كان لابُدَّ لي من منجَلٍ ، فأتيْتُ بأحد السَّيْفَيْن ، اللذَيْن أخذْتُهما من السفينة ، وكيَّفْتُهُ حسَبَ

الإمكان ليؤدِّي دَوْرَ المِنْجل . بَعْدَ هذا كم منَ الأدواتِ أحتاجُ إليها كيما تتحوَّلَ هذه السُّنبلةُ إلى رغيف ! فأنا محتاجٌ إلى نَوْرَجٍ ومِذْراةٍ ، ثم إلى طاحونةٍ ومُنْخُل... ومن أين لي بعدَ ذلك الخميرةُ لأضيفَها إلى العجين ، وكيف أهيء فرناً لخبْزِ الأرغفةِ بعدَ أن يتمَّ لي صُنْعُها ؟ كلُّ ذلك يتطلّبُ جُهْداً مُضْنياً ووَقْتاً طويلاً .. ومع ذلكَ فلم أتأخَّرْ عن بَذْلِ الجُهْد ، لأنني كنت أعتبرُ أنَّ هذا الحَبَّ هو أثمـنُ شيءٍ حصَلْتُ عليه . وقرَّرْتُ ألاَّ أمسَّ إنتاج هذا الموسم ، بل أترُكَه كبذارٍ ، على أملِ أن أبدأ بالتَّغذِّي به في الموسمِ التالي، أي بَعْدَ ستةِ أشهر .

وقد استخدمت جِذْعَ شجرةٍ ضخمةٍ كنَوْرَجٍ ، كما استَخْدَمتُ رَفْشيَ الخَشَبيَّ كمِذْراةٍ ، وجَمَعْتُ الحُبوبَ وخبَّأتُها في انتظار مَوْعِدِ البَذر . وقضَيْتُ الأشهرَ السِّتةَ في صُنْـعِ الأدواتِ التي أحتاجُ إليها لتهيئة خبزي .

في المدةِ التي حبَسَتْني فيها الامطارُ داخِلَ مَغارتي ، كنتُ وأنا ماضٍ في العمل ، أتحدَّثُ إلى ببَّغائي الذي علَّمْتُهُ اسمَهُ وكُنْيَتَهُ ، فكان يصيح : « البغاء اللطيف . » وكانت هذه أوَّلَ كلمات أسمعُها بصوتٍ غيرِ صوتي .

كنتُ ، كما قدَّمت ، لا أزالُ أحتاجُ إلى أشياءَ كثيرةٍ ، في مقدَّمتها الأوعيَة . وكنتُ أتمنى أن أعثُرَ على صَلْصالٍ لأصنعَ



« إلا ان ما كان يشغل بالي هو كيف احصل على اوعية .. »

أوعيةً فخاريةً مختلفةَ الأحجام ؛ لأنني أنتظرُ أن يكونَ عندي كمياتٌ من القمح والدقيق والموادَ الأخرى التي لا بُدَّ من حفظِها وتخزينها بطريقةٍ معقولة .

وقد رُحْتُ أُحاولُ تشكيلَ بَعْضِها بحيث تكونُ متماسكةً كالجِرار والحَوابي . ولو أنَّ أحداً رآني ، وأنا أبْذُلُ هذه المحاولات الساذَجَة ، لَضَحِكَ مني كثيراً ؛ لأنَّ الأوعيةَ التي كنتُ أصنَعُها كانت سُرْعانَ ما تَنْفَرِطُ وتتساقطُ قِطَعاً صغيرةً. وتمكَّنْتُ آخرَ الأمرِ من صُنْع وعاءَين كبيرين متماسكَيْن وإن كانا ساذَجَيْن من حَيْثُ الشكل .. ورغمَ رداءتِهما فقد كلَّفاني شَهْرَيْنِ مِنَ العَمَل .

بعد ذلك وَضَعْتُهما في سلّتين كبيرتَيْن صَنَعْتُهما خِصيصاً من أجلهما ، حتى لا ينكسِرا . وقد ملأتُ الفراغَ ، ما بين كلِّ وعاءٍ والسلةِ التي تحتويه ، بتِبْنِ الأرزّ والشعير . وقد رأيتُ أنَّ هذه الطريقةَ تحفَظُ الوعاءين جافَّيْنِ بحيث يُمْكِنُ خَزْنُ الحبوبِ فيهما ، بل والطحين .

وإذا كنتُ لم أنجحْ تمامَ النجاح في الأوعية الضَّخْمة، فقد كانتِ النتائجُ مُرْضِيَةً جداً فيما يتعلّق بصنع الأوْعيَة الصغيرة. فقد أصبح الصَّلصالُ ، الذي حَصَلْتُ عليه ، يأخُذُ تحت يدي أشكالاً مختلفة ، ويكتسبُ في الشمس تماسُكاً باهراً . وهكذا صَنَعْتُ أوعيةً مكوَّرةً ، وأطباقاً وأباريقَ وقُدوراً ... إلا أن

الذي كان يَشْغَلُ بالي هو كيف أستطيعُ أن أحصُلَ على أوعيةٍ يمكنُ أن تُوضَعَ على النار دون أن تنكسر ، وبالصُّدْفة وجدْتُ قطعةً من فخّاري ساقطةً في النار التي أشعلتُها لغرض من الأغراض ؛ فإذا بها حمراء من شدَّة الحرارة ؛ فلما استخرجتُها لاحظْتُ أنها لم تتشقَّقْ ، بل زادَتْها النارُ متانةً على متانة ، إذن ففي الامكان شيُّ هذه الأوعيةِ بعد تجفيفِها في الشمس ، فتصبح صالحةً لصُنع الحِساء وتسخينِ الماء وغيرِ ذلك.

لم تكن عندي أيُّ فكرةٍ عن الفُرن الذي يجبُ أن أصنَعَهُ لشيِّ أوعيتي . كما أنني لم أكن أعرفُ المادَّةَ التي يَدْهَنُ بها صانعو الفخار آنيتَهُم ، وأجهَلُ أنَّ الرَّصاصَ الذي في حوزتي يُمكن أن يُستخدم لهذا الغرض . وعلى هذا فقد تركتُ الصُّدفةَ تقودني ، فوضعتُ ثلاثاً من جِراري. الواحدةَ فوق الأخرى ، وتحتَها كومةٌ من الرّماد ، وأشعَلْتُ النارَ حولَها . فتأجَّجَتْ بشكلٍ رائعٍ وأحاطَتْها عن جوانبها ومن فوقها ؛ فلم تَلْبَثْ أن احمرَّت دون أن تنشقَّ واحدةٌ منها . وتركْتُها نحو خمس أو ستِّ ساعات في هذه الدرجةِ المرتفعةِ من الحرارة ، فرأيتُ إحداها وقد بدأَتْ تَذُوبُ ، لأنَّ الحصباء مع الصَّلْصال بدآ يَسيلانِ تحت تأثيرِ الحرارةِ المرتفعة ؛ ولو أنني واصلْتُ تأجيجَ النارِ لحصلْتُ على زُجاج . لهذا صِرْتُ أخفِّفُ النار بالتَّدْريج ، وظلَلْتُ طُولَ اللَّيلِ ساهراً ، حتى لا تنطفىء

النارُ بصورةٍ مفاجئة. وعندَ الفجر كان لديَّ ثلاثُ جِرارٍ وثلاثةُ أوعية من الآجُرِّ المشويِّ على ما يُرام. ومنذ ذلك الحين، أي بعدَ أن تزوَّدْتُ بالتجربة، لم أفتقدْ إناءً ولا قِدْراً لأنني أصبحت قادراً على صنع ما أشاء.

بقيَ عليَّ أن أصنع جُرْناً أدقُّ فيه أرُزِّي وشعيري. من نوع الحجارة لم أعثُرْ على حجر لا يتفتَّتُ من أثر الدقِّ وتختلط ذرَّاتُهُ بالدقيق؛ فلجأتُ إلى «شجر الحديد» الذي تحدَّثْتُ عنه. فجئت بقطعة ساقٍ غليظةٍ أستطيع أن أحرِّكَها. وبَعْدَ أن أعطيتُها الشكلَ الخارجيَّ الملائم، رُحْتُ أحفرُها بواسطة النار.

والمُنْخُل! أنا في حاجة إلى مُنْخُل، لأفصِلَ دقيقي، في المستقبل، عن القِشر. الحقيقةُ أن هذه مشكلةٌ صعبةُ الحل. صحيح أن لديّ كثيراً من وَبَر الماعز، ولكن كيف السبيل إلى غزلِه ونسجِه؟ ومن أين لي الأدواتُ اللازمةُ لهذا؟

ذكرتُ أنني أتيت من السفينة بقِطَعٍ من التُّول. ففتَّشْتُ عنها وصَنَعْتُ ثلاثةَ أكياسٍ يُمْكن استخدامُها في النخل. ولما جاء الموسم، وجَنَيْتُ محصولي، وحصلت على دقيق ممتاز، أصبح عليَّ أن أُعِدَّ فرناً لخَبْز عجيني. من أجل ذلك صَنَعْتُ قَصْعَةً من الآجُرِّ، كما رَصَفْتُ المَوْقِدَ بالآجُرِّ أيضاً. وبعدَ أن أشعلْتُ ناراً عظيمةً في المَوْقد المَرْصوف، تركتُها إلى أن

تحولَتْ إلى جمْر، فأزحتُهُ ثم كنَسْتُ الرَّمادَ عن المَوْقِد، ووَضَعْتُ رغيفَ العجين، الذي استغْنَيْتُ فيه عن الخميرة لعَدَم وُجُودِها، ومن ثَمَّ غَطَّيْتُ القطعةَ بالقَصْعة وجَمَعْتُ حولها وفوقها الجمْرَ الذي غطَّيْتُهُ بالرَّماد ليَحْفَظَ الحرارة. وبهذه الطريقة حصلْتُ على خبزٍ ممتاز من الشعير؛ بل صَنَعْتُ بعضَ الحلوى من دقيق الأرُزّ.

كانت تلك الأعمالُ طويلةً ودقيقةً، فلا عَجَبَ إذن أن تَشْغَلَني طوالَ العامِ الثالث، الذي جنَيْتُ فيه محصولاً محترماً يبلغ نحو عشرين كيلاً فرنسياً (الكيل عشرة ليترات) من الشعير، ومثلها، على الأقل، من الأَرُزّ. ومنذ تلك اللحظة أصبح لديَّ خبزٌ بصورة مستمرة.

في الوقت الذي كنتُ فيه أؤدِّي هذه الأعمالَ، كانت تمرُّ في رأسي فكرةُ الذهابِ إلى الأرضِ التي اكتشفْتُها في الطَّرَف الآخر، لعلي أتحرَّر من سجني. ولم أفكِّرْ في الأخطار التي قد أتعرَّضُ لها. ولكنْ كيف السبيلُ إلى قَطْع هذا البحر؟ هنا ذكرتُ «كسوري»، ذلك الخادمَ المخلصَ، وذكرْتُ مَرْكبي الذي قَطَعْتُ به نحوَ ألفٍ ومئة ميلٍ بحريّ، قُرْبَ السواحل الإفريقية. ولكن ماذا تُفيد الذكرى الآن؟ لا بُدَّ من شيء عمليّ. هنا خطَرَ لي أن أذهبَ إلى مكان الفُلَيْكة، التي قذَفَتْها الأمواجُ على الشاطىء يومَ أن غرِقَتْ سفينتُنا. وبالفعل

وجدتُها كما ظهرتْ لي في المرة الأولى . كانت مقلوبةً على وجهها فوق تلٍّ من الرمال بعيدٍ عن الأمواج، حيث قذفتْها تلك العاصفةُ العجيبة ، ليت بجانبي أحداً يساعدُني على قلبها وإنزالها في البحر بعد طِلائها . إذنْ لاستخدمتُها في السفر إلى البرازيل . ولكنَّ زحزحتها ، بالنسبة إليَّ أنا وحدي ، مستحيلةٌ كزحزحةِ هذه الجزيرة . ومع ذلك لم أتردَّدْ في التوجه إلى الغابات ، حيث أعددْتُ مُخولاً خشبيَّةً وأسطواناتٍ نقلتُها جميعاً إلى حيث كانت « الفلوكة » . ولكنني قضيْتُ ثلاثةَ أو أربعةَ أسابيعَ دون فائدة . فصرفْتُ النظرَ عن هذا المشروع الجذّاب ، دون أن أتنازل عن فكرة الإبحار إلى البرِّ الآخر .

ورُحت، من أجل ذلك، أفكِّر في بناء مرْكَبٍ من جذْع شجرة ، على طريقة البدائيين . وقلت في نفسي ، عندما رأيت صعوبة العمل . إن لديّ من سعةِ الخيال أكثرَ مما لدى الزنوج والأميركيين بالتأكيد ، فكيف لا أنجحُ في ذلك ؟.

وهكذا بدأتُ التنفيذَ دون أن أهتمّ بالعوائق والصعوبات ، ورحتُ أعمَلُ في قطع أرزةٍ أشكُّ في أن يكون سليمانُ قد أحصل على مثلها من لبنان . فقد بلَغَ قُطْرُ جذعِها ، من أسفل . خمسَ أقدام وعشر بوصات . ومن الطرف الآخر ربعَ أقدام وإحدى عشْرَةَ بوصةً . على طول اثنتين وعشرين

قدماً . وبذلتُ مجهوداً جباراً في هذا العمل ، فقضيْتُ عشرين يوماً في قطْعها ، وخمسةَ عشَرَ يوماً في قطع فروعها ورأسها ثم قضيْتُ شهراً كاملاً لإعدادها من الخارج بحيث تأخذ الشكلَ الانسيابيّ للسفن . بعد ذلك رُحْتُ أجوِّفُها مستخدماً المطرقةَ والإزميل . واستغرقَ هذا العملُ ثلاثةَ أشهر ، رأيتُ نفسي على أثرها مالكاً لزورقٍ جميلٍ يتّسعُ لستةٍ وعشرينَ شخصاً . بمعنى أنه يستطيعُ أن يحملَني مع كافّة أمتعتي . الشيءُ الوحيدُ الذي بقي أمامي هو أن أُنزلَ هذا المركب ، أو هذا الغندول ، في البحر .. ولو أمكنني ذلك لكنت تورّطْتُ في مجازفة جنونية دون أن يكون لي أمل في النجاح . إلا أنَّ جميعَ المحاولات التي بذلتها لكي أنقلَ مرْكبي إلى الشاطىء باءت بالفشل ، كما حدَثَ لي بالنسبة إلى الفلوكة . ولكن .. ما دُمْتُ لا أستطيعُ أن أحملَهُ إلى البحر فما الذي يمنعُ من حمْل البحر إليه ، بحيث أحفرُ قناةً تصل إلى النقطة التي هو فيها ؟ غير أني رأيت أن هذه القناة يجب أن تكون على عمق اثنتين وعشرين قدماً على الأقل عند نهاية الخط .. وعلى هذا الأساس أحتاج إلى عشر أو اثنتيْ عشْرةَ سنةً لكي أحفرَها . ولذلك تنازلتُ نهائياً عن المشروع ، وأنا نادمٌ أشدَّ الندم ، لأنني لم أفكِّرْ في النتائج قبلَ أن أبدأ العمل .

١٠. طريقة روبنسون في الحياة

في منتصف هذه العملية تمَّمْتُ السنةَ الرابعة من نزولي في الجزيرة . وقد احتفَلْتُ بالذكرى وفي نفسي كثيرٌ من القناعة والطُّمأنينة . ما الذي يُعْوِزُني ؟ لا شيء ! فلَدَيَّ كلُّ ما أحتاجُ إليه ؛ وأنا صاحبُ هذه الجزيرة ، ومَلِكُها .. أنا القاضي فيها بأمري ، ولا أحدَ يخالفُ أوامري ، أو ينافسُني على السيادة في مملكتي هذه ! لقد أصبحَ في وُسْعِي أن أملأ مخازِنَ واسعةً من الحبوب من إنتاجي ، ولكنْ ما فائدةُ ذلك ؟ يكفيني أن أُنْتِجَ ما أحتاجُ إليه .. وهكذا بالنسبة إلى العِنَب والنبيذ والزبيب .. إنَّ الكفايةَ هي الشيءُ المهمُّ . وما زادَ عن حاجتي لا شأنَ لي به .

هذه القناعةُ جعلَتْ حياتي أسهَلَ وأمْتَعَ مما كانت عليه فيما مضى . فقد أصبَحْتُ أنظرُ إلى حَسَناتِ هذه الحياة ، متغاضياً عن سيِّئاتها ؛ فكان ذلك عزاءً لي ما مثلُهُ عزاء . إنَّ الآلامَ التي تَنْخَرُ قلوبَ النّاس ، الّذين يَحْصُرونَ تفكيرَهُمْ في ما يَفْتَقِدُونَه من الأشياء ، ناشئةٌ عن أنهم لا يَقْدُرونَ ما بين أيديهم حقَّ التَّقدير .

لو لم أحْصَلْ على ما حَصَلْتُ عليهِ من السفينة وأصنعِ

الأدواتِ التي أحتاجُ إليها ، لكُنْتُ ، إذا حَصَلْتُ على طريدة أو سَمَكة ، مُضْطراً إلى استخدام أظافري وأنيابي في تمزيقها وأكلها ، كالحيوانات المفترِسةِ سواءً بسواء .

الشيء الذي نَفِدَ من مخزوناتي ، بعد الحبر ، هو البسكوت والملابس . فكميةُ الحبر التي كانت عندي ظلَلْتُ أضيفُ إليها الماء كلما نَقَصَتْ حتى أصبحَ الخطُّ شاحباً لا أستطيعُ تمييزَهُ . أما الثيابُ ، فقد وجَدْتُ ، لحسنِ الحظ ، ثلاثَ دزّينات من القمصانِ في صناديقِ البحارة ؛ كما وَجَدْتُ معاطفَ ثقيلةً . غير أني لم أستفِدْ من المعاطف بسبب حرارة الجوّ . ومع ذلك يجبُ الاقتصادُ في الملابس حتى لا أفقدَها نهائياً . لم أحتمِلْ فكرةَ السَّيرِ عارياً ، رغمَ أنني كنتُ وحيداً في الجزيرة . ثم إن تعرُّضي للشمس كان يؤدي إلى ظهُور بُقَعٍ من الكلف في جسمي ، كما كان يزيدني شعوراً بالحرّ ؛ في حين أنني عندما كنت أرتدي قميصاً ، كان الهواء ، الذي يتخلّل القميصَ ، يُنعشني . كذلك لم أكن أستطيعُ البقاءَ حاسرَ الرأس ، إذ كنتُ كلما فعَلْتُ ذلك شعَرْتُ بصُداعٍ لا يزولُ إلا متى غطّيْتُ رأسي .

هذه التجاربُ دفعَتْني إلى استخدامِ مؤهّلاتي في إعداد ما أسترُ به جسدي ؛ فأخذْتُ أعملُ في تحويل المعاطفِ أثواباً

تتناسبُ مع وَضعي .. وهكذا صِرْتُ أقومُ بمهمّة الخيّاط أو المُرَقــع .

كنتُ دائماً أحتفظُ بجلود الحيوانات التي أقتلُها . ولكنني كنتُ كثيراً ما أترُكُ هذه الجلودَ في الشمس مدةً طويلة ، فتجفُّ وتقسو الى درجة أنني لم أعُدْ أستطيعُ معالجتها . ولكن الجلودَ الطريّةَ تمكّنْتُ أن أصنعَ منها أغطيةً للرأس، تحفظُ رأسي من الشمس والمطر. كذلك صنعتُ منها سترات وسراويلَ لم تكن بالطبع مما يُثبتُ مهارتي ، ولكنّها، مع ذلك، تحفظني تماماً من المطر .

بعد أن انتهيْتُ من هذه الأعمال صَرفْتُ هَمّي إلى صُنع مِظلّة ، كتلك المظلاّت التي رأيتُها في البرازيل . حيث تُستَخدم وقتَ الحرّ الشديد . لم أنجح كثيراً في المظلاّت الأولى ، التي لم أكن أستطيعُ أن أطويَها ، فأضطرَ إلى حمْلها مفتوحةً على الدّوام . ولكنني تمكّنْتُ أخيراً من صُنْع واحدةٍ طِبْقَ المرام ، أطويها وأنشرُها كما أشاء ؛ وقد كسوْتُها بجلد ماعزٍ جعلْتُ وَبَرَهُ خارجاً ، وصرْتُ أحتمي بها من حرارة الشمس . كما أحتمي بها من المطر ، حتى لكأنني تحت سقف . فاذا لم تكن لي بها حاجةٌ طوَيْتُها وحمَلْتُها تحت ذراعي .

وهكذا أصبحتْ حياتي سهلةً ، فعشْتُ راضياً بما قسمَتْهُ لي الأقدار ، وسلَخْتُ خمسَ سنوات دون أن يَحدُثَ لي شيء غيرُ عادي . وإلى جانب الأعمال الاعتيادية ، من زراعة

وصيد وتجفيف عنب ، صنعتُ قارباً صغيراً ، بعد أن تركتُ القاربَ الكبيرَ في مكانه ، وحفرْتُ له قناةً بعُمْق ستّ أقدام واتّساع أربع ، وأوصلْتُه إلى الجوْن . وقد استفَدْتُ في ذلك من التجارب الماضية ، بحيث اخترْتُ مكاناً قريباً من البحــر لصُنْع قاربي الجديد ، الذي أمضيْتُ عامَيْن في إعدادِه وشقّ قناةٍ له .

على أن حَجْمَهُ لم يكن يتناسبُ مع المشروع الذي كانت فكرتُهُ تلازمني باستمرار : ألا وهوَ الخروجُ من جزيرتي . لم يكن من الممكن أن أقطعَ الذراعَ البحريَّ بيني وبين القارّة ، وعرضُهُ لا يقلُّ عن أربعينَ ميلاً .. لهذا تنازلْتُ عن الفكرة ، ولكنني قررت أن أدورَ بقاربي حولَ الجزيرة ، وهذا أقلُّ ما أطلبُهُ من قاربي. لقد اجتزْتُ الجزيرةَ من طرَفٍ إلى طرف ، غير أني كنتُ أحبُّ أن أفحصَ كلَّ شواطئها . ولهذا جهَّزْتُ قاربي بصارٍ وشراع ، ثم ركزت مِظلّتي في مؤخَّرِه ، حيث توجَدُ الدَّفّة . بعد ذلك حملْتُ ما أحتاجُ إليــه من الزاد والأدواتِ لهذه الرّحلةِ وأبحرْتُ في السادس من شهر تَشرينَ الثاني من العامِ السادسِ من بدء مُلكي أو سِجني .

الجزيرةُ لم تكن بالغةَ الاتساع . ولكنّ صخوراً كانت تمتدُّ منها في الناحية الشرقية على مسافة فرسَخَيْن مؤلّفةً شبهَ جزيرة . كانت بعضُ هذه الصخورِ ترتفعُ فوقَ سطح الماء ، في حين

تختفي الأخرى أثناء المدّ . ثم يلي ذلك رصيفٌ رمليٌ يمتدُّ نحوَ نصف فَرْسَخ . إذن فقد كان عليّ أن أدخُلَ بعيداً في البحر كيما أتمكّن من الدَّوَران حولَ هذا النتوء . وقد كدْتُ أقطعُ رحلتي إزاء هذه المصاعب ؛ لأنّ فكرةَ العَوْدة كانت تُقلقني . لذلك رَمَيْتُ مِرْساتي ، التي صنعتها من « كلاّب » مكسور كنت قد أنقذتهُ من السفينة ، وحمَلْتُ بندقيّتي وصَعَدْتُ على مرتَفَعٍ كَشَفْتُ منه كلّ ذلك الجزء من الجزيرة .

كان صُعودي إلى المرتَفَعِ مُفيداً لي ؛ فقد اكتشَفْتُ وجودَ تيارٍ عنيف، قريبٍ من رأس النُّتُوء ، يتّجه نحوَ الشرق ؛ وكان ينبغي لي أن أتفاداه حتى لا يَدْفعَني إلى عُرْض البحر ، بحيث لا أعرفُ كيف أعود . ورأيت تياراً ثانياً في الطرَف الآخرِ من الجزيرة ، ولكنه لا يبتعدُ عن شاطئها . كذلك رأيت حاجزاً كبيراً من الصخور . وقلت في نفسي إنني أستطيعُ أن أستفيدَ من هذا الحاجز ، إذا تسنّى لي أن أتفادى التيّارَ الأوّل . ولكنّ ريحاً قويةً هبّت في اتجاه التيّار فخفتُ أن تدفعَني إليه ، فانتظرْتُ ليلتَيْنِ على ذلك المرتفَع إلى أن سكنتِ الرّيح .

في اليوم الثالث ركبْتُ زَوْرَقي ومضيْتُ . ولكنّني ما إن وصلْتُ إلى رأس النتوء حتى وجَدْتُني في وَسَط التيّار الذي كان ، في اندفاعه ، أشبهَ بمياه قناةٍ يُفْتَحُ حاجزها . وقذفني هذا التيارُ إلى عُرْض البحر بعيداً عن الحاجز الذي أصبحَ عن



« فما كان مني إلا ان جهزت نفسي .. ومضيت في طريقي.. »

يميني . لم تكن هناك نَسْمةٌ واحدةٌ تَهُبُّ ، إذن فلا أمل لي في العودة . عندها أيقنت أنني انتهَيْت ، وتبدَّت لي جزيرتي جنَّةً أمام ما عرَّضْتُ نفسي إليه من الضياع .. هذه هي حالُنا : فنحن لا نقدِّر ميزاتِ وَضْعِنا إلا إذا انتقلْنا إلى وَضْعٍ أسوأ منه .

ومعَ ذلك بذلْتُ ما في وُسْعي حتى أوجِّهَ زَوْرقي نحو الشمال . وحوالَى الظهرِ شعرْتُ بأنسامٍ خفيفةٍ تَهبُّ على وجهي . وكم كانت فرحتي عظيمةً عندما راحت هذه الأنسامُ تشتدّ ، بعد نحو نصفِ ساعة ، لتتحوَّلَ إلى رياحٍ مؤاتية ، وكنتُ قد أصبحتُ بعيداً جداً عن الجزيرة ، حتى لا أكاد أراها . ولو ساء الجوُّ وأنا على تلك المسافة لَلَقِيتُ حَتْفي بالتأكيد .

واستطَعْتُ حوالى الساعة الخامسة بعد الظُّهر ، أن أنزِلَ إلى الجزيرة ، ولكنْ في الشَّمال ، أيْ في النقطة المواجهة تماماً للمكان الذي أعيشُ فيه . ووضَعْتُ زورقي في مكان أمين ، ثم فتَّشْتُ عن مرْقد ، فما لبثْتُ أن غرِقْتُ في النوم لطُول ما تحمَّلْتُ من المشقَّة .

في اليوم التالي قرَّرْتُ أن أسيرَ بمركبي بمحاذاة الشاطىء الغربيِّ لأعودَ إلى منطقتي . ولما أصبحتُ على الشواطىء الغربية رُحْتُ أفتِّش عن مكان أحفَظُ فيه زَوْرقي . وبالفعل وجَدْتُ فُرْجةً تَحْميها الصُّخورُ ، كأنَّما صُنِعَتْ من أجل زورقي بالذاتِ ؛ فتركتُهُ هناك ونزلتُ لأعرِفَ أين أنا من الجزيرة .

وسُرْعانَ ما ظهرَ لي أنني لستُ بعيداً عن المكان الذي وصلْتُ إليه عندما قطعتُ الجزيرةَ براً . لهذا تركتُ زادي ومتاعي في الزَّوْرق ، وحملْتُ بندقيتي ومِظلَّتي ، وسِرْتُ . ووَصلْتُ مساءً إلى ما سَمَّيْتُهُ منزلي الرِّيفيَّ . فقفزْتُ من فوق الحاجز ، واستلقَيْتُ في الظلِّ ، وما لبثْتُ أن نمتُ . ولكم دُهِشْتُ حين أفقْتُ على صَوْتٍ يناديني باسمي : « روبنسون ! روبنسون كروزو ! أين أنت ؟ أين كنت ، روبنسون ؟ » ولكنني كنت منهوكاً من التعب ، فظلَلْتُ راقداً أسمعُ اسمي بين اليقَظة والمنام . بعد ذلك أفقْتُ تماماً ، لكثْرَةِ ما تردَّدَ اسمي . فوجدتُ ببَّغائي . كان هذا الحيوانُ اللطيفُ يطيرُ إليَّ إذا ناديتُهُ ويقفُ على إصبعي ، ثم يأخذُ في ترديد الكلام الذي علَّمتُهُ إياه : « مسكين ، يا روبنسون كروزو ! أين أنت ؟ أين أنت ؟ كيف جئتَ إلى هنا ؟ » وناديْتُهُ فإذا به يخفُّ إليَّ ، ويكرِّرُ كلماتِهِ كأنَّهُ سعيدٌ بعودتي .

لقد كنتُ محتاجاً إلى الراحةِ بَعْدَ المخاطر التي تعرَّضْتُ إليها . وكانت فكرةُ العودة إلى البحر لأكمِلَ الدورة حولَ الجزيرة تخيفني ، لأنني كنتُ مؤْمِناً بأنَّ التيَّارَ يُسَيْطرُ أيضاً من هذه الناحية . ولهذا صَرَفْتُ النظرَ عن الزورق .

عشتُ سنةً في هدوء . خلالَ هذه السنة جعلْتُ أزيدُ مهارتي في صنع الأواني الخزَفية والسِّلال . وأستطيع أن أقول

إني أصبحتُ على درجة ممتازة في كلتا الصناعتَيْن. وقد اخترعْتُ دولاباً أستطيعُ بواسطته أن أعطي الشكلَ والاستدارةَ المطلوبَيْنِ للآنية التي أريدُ صُنعها. وتمكّنْتُ كذلك من صنع غليون. صحيح أنه كان في السفينة غلايين كثيرة، ولكنني أهملتها ظناً مني أنه لا يوجد تبغٌ في الجزيرة. وقد فرِحتُ فرحاً شديداً بهذا النجاح لأنني كنت أُحبُّ تدخينَ الغليون.

في السَّنةِ الحادية عشرةَ أوشكَتْ كمياتُ البارود، التي كانت عندي، أن تَنْفَدَ؛ فكان من الضروريّ أن أفكّرَ في الحصول على لحم الماعز عن غير طريقِ الصَّيد. كنتُ أحلمُ بأن أؤهِّلَ زوجاً من هذه الحيوانات لتتكاثرَ عندي. فالعنزةُ، التي أهمَلْتُها في الماضي، كبرتْ وشاختْ قبل أن أجِدَ لها ذَكَراً، فتركتُها تموتُ ميْتَةً طبيعيةً، ولم أشأ أن أذبحَها.

وبعد عدة محاولات فاشلة لقَنْصي بعض الماعز، نجحتُ في إعداد حفرتَيْن بطريقةٍ عملية. وقد سقط في الأولى تيس ضخمٌ ضخامةً غيرَ عادية؛ أما الثانية فقد عثرتُ فيها على ثلاثة من الجداء: ذكَرٍ وأنثيَيْن. فأطلقتُ التيس، لشدّةِ شراستهِ واستحالةِ تأهيله، واحتفظْتُ بالجِداء الصغيرة. غير أنه تبيَّنَ لي بالتجربة أن التجويعَ من شأنه أن يؤهِّلَ حتى الأسْودَ. فالجِدْيانُ الثلاثة، بعد أن ظلّت مدةً ترفض الأكل، عادت فأكلت عندما عضّها الجوع، وخاصةً عندما وَجدَتْ أن ما

يُقَدَّمُ إليها طعام ممتاز.

وخطرَ لي أن أضعَ جِدائي، التي أصبحت طيِّعةً، في مساحة من الأرض أحيطُها بسورٍ يمنعُها من الهرَب، كما يمنعُ المعيزَ البريّةَ من الاقتراب منها، خوفَ أن تعودَ إلى طبيعتها الأولى. وهكذا بحثتُ عن أرض فيها ماءٌ وظلّ؛ وبدأتُ العملَ في السور، تاركاً الجداءَ ترْعَى بالقرب مني، وكلٌّ منها مربوطٌ بإحدى قوائمه. وكنت أحياناً أقدِّمُ لها سنابلَ الشعيرِ وحَفَنَاتٍ من الأرُزّ، فتأكل من راحتي. وقد ألِفتني إلى درجة أنني عندما أطلَقْتُها، بعد انتهاء السُّور كانت تتبعني وهي تثْغُو لكي أطعمها.

ولم يَمُرَّ عامٌ ونصفُ العام حتى كان عندي اثنا عشر رأساً من المعيز، ذكوراً وإناثاً، وفي نهاية العامَيْن أصبحَ قطيعي مؤلفاً من ثلاثة وأربعين رأساً. وقد دعاني هذا إلى إنشاء خمس حظائرَ أخرى، أصغرَ من الأولى. ونظمتُ عدّةَ محاجر صغيرةٍ وجعلْتُ بينها مداخلَ لأقنصَ المَعيزَ البريّةَ بسهولة.

وقد أصبحتُ أجمعُ كميّةً وافرةً من الحليب، بعد أن تمرّنْتُ على حلب الأُمّات التي تُدِرّ؛ ومن ثم نجحت، بعد محاولات عديدة، في صنع الجبن والزُّبدة، فلم يخلُ منزلي من هذه الأصناف بعد ذلك. ولكَمْ كانَ منظرُنا مُسلّياً، أنا وعائلتي، ونحن نتناول غداءنا؛ فكأنني مَلِكٌ وَسْطَ حاشية:

الفَرْدُ الوحيد الذي يُسْمَحُ له بالكلام هو البَبَّغاء ، وهـو المُفَضَّل ؛ ويجلس عن يميني دائماً كلبي الذي أصبحَ عجوزاً وحزيناً ، ومن ناحية أخرى من المائدة تنتظر الهرّتان أن أرميَ لهما قِطعَ اللحم .. وهاتان الهرّتانِ هما من نسل الهرّ والهرّة اللّذَيْن أنقذْتُهما من السفينة .

كنتُ أفكر أحياناً في العَوْدة إلى زورقي ، والدَّوَران به حَوْلَ الجزيرة ، ولكنَّ الخوف كان يستولي عليَّ . وذاتَ يومٍ وَجَدْتُ رغبة ، لا تقاوَمُ ، في الذَّهاب إلى رأس الجزيرة لدراسة الشواطىء من جديد . فما كان مني إلا أن جَهَّزْتُ نفسي بما يلزَمُ ومَضَيْتُ في طريقي .

كان شكلي طريفاً للغاية . فقد كنتُ أعتمرُ لباسَ رأسٍ طويلاً جداً صَنَعْتُهُ من جلد المَعز ، ووَصَلْتُ به نصفَ جلد تيس من الخلف ، لأمنعَ الشمسَ عن رَقبتي ، وأحفَظَها من المطر . وكنتُ أرتدي قميصاً من نفس الجلـد وَبَرُهُ إلى الخارج ، ويصلُ إلى ما فوقَ الرُّكبة ؛ ولكنَّ الوَبَرَ كان من الطول بحيث ينخفضُ حتى رَبْلَةِ الساق (بطّة الرجل) . وكنت أنتعل صَنْدَلاً من الجلد مربوطاً بسَيْرٍ يَلْتَفُّ حوْلَ ساقي . كنتُ أحيطُ وَسَطي بِمِنْطَقَةٍ جلْديةٍ من نفس نوع الملابس ، وعلَّقْتُ بها منشاراً ، من جهة ، وفرّاعةً ، من الجهة الثانية .

وبحمّالة جلدية علَّقتُ ، تحت ذراعي ، كيسَيْن صغيرين ، في أحدهما بارودٌ وفي الثاني خرْدُقٌ . وكنتُ أحملُ فوقَ ظهري سلّةً وعلى كتِفي بندُقيتي ، وأرفعُ فوق رأسي المِظلّة .

لم يكن لوني شديدَ السُّمرة ، رغمَ قربِ المنطقة من خطّ الاستواء . أما لحيتي فقد تركتُها مرةً تنمو حتى بلغتْ عشرينَ سنتيمتراً طولاً . ولكنْ بما أنه كان عندي مِقَصٌّ وموسى ، فقد كنت أحلقُها تاركاً شاربيَّ يستطيلانِ على الطريقة التركية .

ظلَلْتُ أسيرُ خمسةَ أيام حتى بلغتُ الرابيةَ التي كنت قد اتخذْتُ منها نقطةَ مراقبَةٍ . ولكم دُهشتُ عندما رأيت أن البحرَ ساكنٌ إلى أقصى حدٍّ كما هي الحالُ في خليجي الصغير ؛ فلا مَوْجَ ولا تيارَ ولا حركة . فرُحْتُ أُعمِلُ فكري ، وأراقبُ البحرَ لأعرِفَ سببَ ذلك التيّارِ العنيفِ الذي كاد يقْضي عليَّ . وقد تبيَّنَ لي في المساء ، مع ظهور التيار مرةً أخرى ، أن هذا ناشىء عن المدّ ، كما تبادرَ إلى ذهني أوّلَ الأمر . إذن ففي إمكاني ، بعدَ ضَبْط أوقات المدّ والجزْر أن أقوْدَ زورقي إلى قربِ منزلي . ولكنَّ صورةَ المخاطرِ التي واجهْتُها جعلتْني أفكّرُ في مشروعٍ آخر : ألا وهو بناءُ زورق جديدٍ في هذه الناحية ، وبذلك يصبحُ عندي زورقانِ ، أحدُهما في هذه الجهة من الجزيرة والآخرُ في الجهة المقابلة .

١١. اخطار جديدة

على أنّ مشاريعي تلك ما لبثتْ أن تغيّرت نظراً لظهور أشياء جديدة مقلقة. ففي ذات يوم ، بينما كنت متوجّهاً إلى المكان الذي تركتُ فيه زورقي شاهدْتُ على الرمال آثار قدميْن حافيتيْن. فوقفتُ مصعوقاً ، أنظرُ حولي ، وأتسمّعُ إلى كلّ حركة. ثم صعَدْت فوق مرتفعٍ رحْتُ أفحصُ منه كلّ الجوار ؛ ولكنني لم أرَ شيئاً. فعدْتُ إلى مكاني لأتأكّدَ مما إذا كانت تلك الآثار مجرّدَ تصوّراتٍ في خيالي. ولكنْ.. ها هيَ أمامي.. إنها لقدَمٌ انسانيةٌ دونَ شكٍّ.. هذه هيَ آثارُ الأصابع.. والكعبِ.. وكلّ الانحناءات !

لم أكن أعرفُ ماذا يجبُ أن أفعلَ. وسرْعانَ ما رأيتُ نفسي أهربُ دونَ وعْيٍ ، وأنا أنظرُ بخوف إلى كلّ شيء ؛ ويخيّلُ إليّ أنّ في كل غابةٍ رجالاً يستعدّون للهجومِ عليّ.

وما إنْ وصلْتُ إلى منزلي حتى سارعْتُ إلى الاختفاء فيه ، كأنّ هناكَ أعداء يلاحقونني. ولستُ أدري إن كنتُ قد صعَدْتُ فوقَ السّور أو دخلتُ من الكوّةِ التي فتحتُها في جدارِ المغارة ؛ لأنني لم أكن مالكاً تمامَ وعيي.

قضيْتُ ليلةً رهيبةً لم يغْمضْ لي فيها جفن. كان لا

يخطرُ لي إلا كلُّ شر ليضاعف خوفي. وقد خيّلَ اليّ أنّ بعض المتوحشينَ ، من القارّة ، قد دفعتِ الأمواجُ أو التياراتُ مركبَهم إلى الجزيرة. والذي كان يقلقني هو أن من المحتمل أن يكونوا قد اكتشفوا زورقي ؛ وفي هذه الحالة لا بُدّ أن يعود هؤلاء الهنود برفاقٍ لهم ليفتّشوا عني.. وحتى إذا لم يعثروا عليّ فلا بدّ أنهم سيكتشفون مزرعتي ويتلفونها ويسوقون قطيعي. ولدى هذه الفكرة ندمت على أنني لم أزرَعْ سوى الكمية التي تكفيني لعامٍ واحد ؛ وقررت أن أزرع ، بعد ذلك ، لعامَيْن أو ثلاثة ، حتى لا أتعرّضَ للجوع إذا أصيب زرعي بأيّ حادث يؤدّي إلى إتلافه.

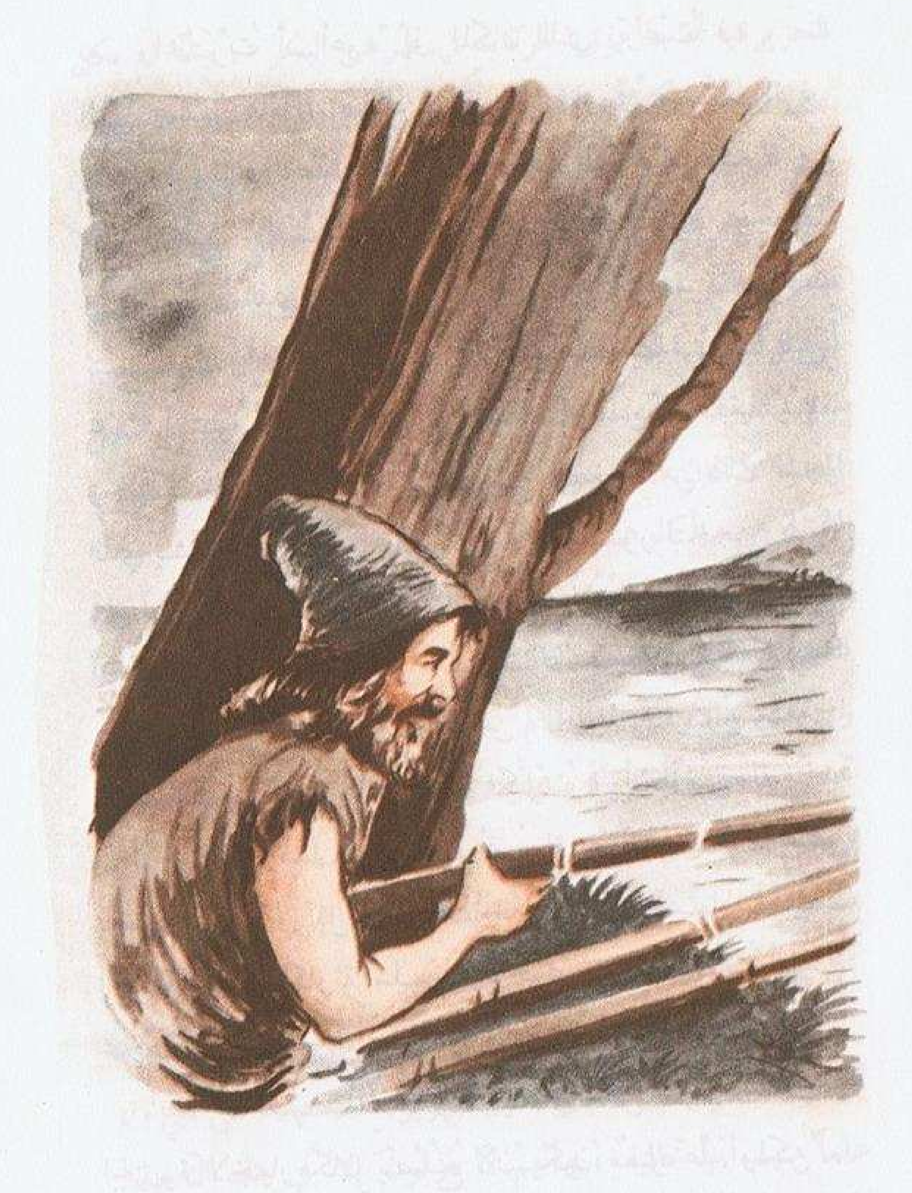
ولازمتُ منزلي ثلاثةَ أيام استعدْتُ فيها بعضَ السّكينة. وقد هوّنْتُ الأمرَ على نفسي قائلاً إن هذه الآثار قد تكون آثار قدميَ أنا. وبعد أن شجّعْتُ نفسي خرجْتُ ، لأنني كنتُ جائعاً ؛ فالذي بقيَ عندي إنما هو بعض قِطعِ البسكوت وقليلٌ من الماء. وخطرَ لي أن عنزاتي في حاجة إلى حلْب ، وكان حلْبُها سلْوَاي كلّ مساء. وقد كان قلقي عليها في محلّه ؛ فقد أثّرَ هذا الإهمالُ في صحتها ، فلم تعُدْ إلى إدرارِ الحليب بصورةٍ طبيعية إلاّ بعدَ عدةِ أيام.

وشيئاً فشيئاً استعدْتُ شجاعتي ، مقْنِعاً نفسي بأنني كنتُ ضحيةً لأوهامٍ من صُنع خيالي ، فكان مثلي كمثل الذي يخافُ

من ظله . ولكنْ لا يمكن لي أن أطمئنَّ تمامَ الاطمئنان إلا إذا عُدْتُ إلى المكان وتأكَّدْت مرةً أخرى . ولكنْ ما إنْ وصلتُ إلى تلك الآثار حتى تبيَّنَ لي أنني لم أنزلْ من زورقي في نفس النقطة ، ثم إن أثرَ القدَم ، الذي ما زالَ ظاهراً ، يدُلُّ على أنها أكبرُ من قدمي بكثير . فعاودتني المخاوفُ والهواجسُ ، وشعرتُ برَعْشَةٍ في جسدي كرعشةِ الحُمَّى . وأيقنتُ أن نفراً من هنود القارّة قد أتَوْا ، أو أنَّ جزيرتي مسكونة ، وأنني معرَّض لهجومٍ مفاجىء لا أعرِفُ كيف أحمي منه نفسي .

وقضَيْتُ الليلَ ساهراً ؛ إلا أن النومَ غلبني قُبَيْلَ الفجر ، لأنني كنت في غاية التعب . وعندما أفقْتُ كنت هادئاً بعضَ الشيء ، فأخذْتُ أفكِّر برَوِيَّةٍ في وضعي .

قلتُ في نفسي إن جزيرةً بمثل هذا الخِصْبِ والجمالِ والقربِ من القارَّةِ لا يمكن أن تكون مجهولةً إلى الحد الذي تصورْتُهُ . فلا بدَّ أن بعض القوارب تأتي إليها بين الحينِ والحينِ ، عن قصْد أو مُرْغَمَةً بسبب الرياح المعاكسة أو التيارات . ولكن هذه القوارب لا تلبث أن ترحل عندما تستطيع ذلك ، لأنني خلالَ الخمسةَ عشرَ عاماً لم أرَ مخلوقاً بشرياً في الجزيرة . لهذا يجبُ أن أحذَرَ هذه الزياراتِ المفاجئة . وقد تبيَّن لي عندَ ذلكَ مبلغُ خطأي عندما فتحتُ منفَذاً في مغارتي معرِّضاً نفسي للخطر . وهكذا قرَّرْتُ أن أبني مركزاً حصيناً آخر أحتمي



« واخترت المكان المناسب.. وراء شجرة مجوَّفـة .. »

به . واخترْتُ أن أعودَ إلى المكان الذي زرَعْتُ فيه . منذ اثنيْ عشَرَ عاماً ، صفيّيْنِ من الأشجار في نصفِ دائرة . وعملت في تدعيمِ هذا السوْر . فحملتُ إليه كميّاتٍ كبيرةً من الأتربة بحيث جعلْتُ كثافتَه أكثرَ من عشرِ أقدام . وجعلْتُ في السوْرِ ، الذي رصّصْتُه بالسيْر عليه . خمسَ فتحاتٍ تتّسِعُ للذراع ؛ ووضعْتُ في كلٍّ واحدة منها بندقيةً فتيلٍ بحيث أستطيعُ أن أطلِقَ الطلقاتِ الخمسَ في دقيقتيْن .

وحملْتُ نحوَ عشرينَ ألفاً من الفروع الصغيرةِ من ذلك الشجرِ الذي يُشبِهُ السوْحَر . فغرزْتُها خارجَ السوْر لتحجبني تماماً . وفي مدى عامَيْنِ أصبحت محاطاً بغابةٍ لا يمكن لأحد أن يظن أن فيها إنساناً .

ولم تصرفْني هذه الأعمالُ عن أعمالي المعتادة . وفي مقدمتها العناية بقطيعي . وفي هذه المناسبة فكرّتُ في أن أؤمّنَ له مزيداً من الحماية . ولهذا قررْتُ أن أقيمَ له حظائرَ متباعدةً عن بعضها ، أضعُ في كلٍّ منها ستاً من المعِزَى بحيث إذا أصيبَتْ إحدى الحظائر بكارثة سلِمَتِ الأخرى . وقد اخترْتُ أماكنَ محجوبةً ونفّذْتُ مشروعي .

بعدَ أن أصبحتْ ممتلكاتي الحيّةُ في مأمن ، رُحْتُ أطوفُ الجزيرةَ لاختيارِ مكانٍ يَصْلُحُ لأنْ يكونَ مستودَعاً . ولكنْ . . هأنذا أفاجأ . ذاتَ يومٍ ، وقد تقدَّمْتُ حتى الرأسِ الجنوبيِّ

للجزيرة ، أفاجأ برؤية مركبٍ في عرْضِ البحر . ولمّا لم يكن معي منظارٌ مكبّرٌ ، فلم أعرف نوعَ هذا المرْكب . فهبطْتُ من المرتفَعِ ووصلْتُ إلى ذلك الجزءِ من الشاطىء الذي لم أكُنْ أعرِفُهُ . هناك وَضَحَ لي أن نزولَ رجالٍ من القارّة في هذه المنطقةِ لم يكُنْ شيئاً نادراً . وقد كان من حُسْنِ حظّي أنني نزلْتُ في الجزءِ الآخَرِ حيثُ لم أرَ أثراً لأولئك المتوحّشين . فقد اكتشفْتُ أنه ، بعْدَ المعارك التي كانت تقعُ بين القبائل الهندية ، كان المنتصرونَ يأتون بأسراهم إلى هذه الجزيرة ليقتُلوهم ويأكلوهم .

كلُّ ذلك عرَفْتُهُ عندما رأيتُ على الشاطىء مشهَداً ملأ نفسي بالهلَع . فقد كانتِ البقعةُ مملوءةً بالجماجم البشرية والأيدي والأرجلِ والعظام . وكانت هناك آثارُ نيران حديثة تحيطُ بها حفرةٌ دائريّة ، مما يدُلُّ على أن وليمةً رهيبةً أقيمت في هذا المكان من عهْدٍ قريب . فوقفْتُ مسمَّراً في مكاني كأنَّ صاعقةً نزلتْ على رأسي . وانكفأتُ عائداً إلى منزلي والدموعُ تملأ عينيّ .

ولما عدْتُ إلى مقرّي كنتُ في غاية الهدوء ، لأنني أيقنْتُ أن هؤلاء المتوحشينَ لا يأتونَ إلى الجزيرةِ للاستيلاء على شيء ، علماً منهم أنها خاليةٌ ، وأنهم لا ينزلونَ إلاّ في هذه الناحية . فقد قضيْتُ في جزيرتي ثمانية عشَرَ عاماً ولم أصادفْ أحداً

منهم ؛ وفي استطاعتي أن أظلَّ كذلك ، على أساسِ ألا أُظهِرَ أيَّ شيء يَدُلُّ على وجودي .

على أنَّ الخوفَ الذي استولى عليَّ على أثر ذلكَ المنظرِ الرهيبِ ، حملني على ألاَّ ابتعدَ عن منطقتي لمدة عامَيْنِ اثنَيْنِ ؛ وأقصدُ بمنطقتي « قصري » ومقرِّي الصيفيَّ وحظيرتي الجديدةَ في الغابات . أما فيما يتعلق بزورقي فقد تخلَّيْتُ عن فكرةِ إيصالِهِ إلى قربِ مقرِّي ، مفضلاً أن أتحمَّلَ مشقَّةَ بناء زورق جديد على أن أتعرَّضَ لمصادفة المتوحشين .

ومع ذلك فإنَّ يقيني ، بأنَّهُ من غيرِ الممكنِ أن يكتشفَ أحدٌ وجودي ، جعلني أستعيدُ نظامَ حياتي المألوفَ شيئاً فشيئاً ؛ إلا أنني أصبحتُ أكثرَ حذَراً ، ومن ذلك أنني اختصَرْتُ الصَّيْدَ بالبندقية . وساعدني على ذلك وجودُ القطيع الذي يزوِّدُني باللحم . وصِرْتُ أفضِّل أن أقنصَ الحيواناتِ بواسطة الفِخاخ . ثم إنني لم أعُدْ أخرجُ إلا وأنا مسلَّحٌ ببندقيةٍ ذات فتيلٍ ، ومسدسَيْنِ من المسدَّسات الثلاثةِ التي أنقذْتُها من السفينة . وكنتُ أعلِّق المسدسَيْن بحزامي الجلديِّ ، وأضيف إليهما سكِّيناً من سكاكيني الكبيرةِ التي كنتُ أصقلُها وأشحذُها باستمرار .

وكنتُ أحلمُ دائماً بأنْ أقتُلَ عدداً من هؤلاء المتوحشين وأنقذَ ضحاياهم من بين أيديهم . وبعدَ أن فكَّرْتُ في عدَّة

طُرُق ، استقرَّ رأيي على أن أكمنَ لهم ومعي بنادقي الثلاثُ محَشْوَّةً الماسورتَيْن . واختَرْتُ المكانَ المناسبَ على مُرْتَفَع جانبيٍّ ، وراء شجرة مُجَوَّفة تحجُبُني تماماً ، وصِرْتُ انتظرُ هناك . وقد أعدَدْتُ بُنْدُقيَّتَيِ الفتيلِ وبندقيةَ الصَّيْدِ . وحَشَوْتُ بندقيتَيْ الفتيلِ بقِطَعٍ من الحديد وأربعِ أو خمس رصاصاتِ مسدسٍ . كما حَشَوْتُ بندقيةَ الصَّيْدِ بحفنة من الخُرْدُق الكبير . وفي كلِّ مسدَّسٍ وَضَعْتُ أربعَ رَصاصات . كما أعدَدْتُ الذَّخيرةَ اللازمةَ لحَشْوِ اسلحتي مرةً ثانيةً وثالثةً ، وتهيَّأتُ للمعركة .

ورغمَ بُعْدِ هذا المكانِ عن قَصْري أكثرَ من فرسخ ، فقد كنتُ آتي كلَّ صباحٍ لأقومَ بالمراقبة . ولكنْ مضى أكثرُ من شهرين ولم يظهرْ أحد . وعدْتُ إلى نفسي وتساءلتُ بأيِّ حقٍ أنصبُ نفسي قاضياً وجلاّداً لأقضيَ على هؤلاء القوم الذين لم ينالوني بأذى . في إمكاني أن أقتُلَ نفراً منهم فيما لو هاجموني ؛ وفي هذه الحالة أكونُ معذوراً لأنني أدافعُ عن نفسي .

وقد خفَّفَتْ هذهِ الأفكارُ من حماستي واندفاعي ، خاصةً وأنني ، في حالِ الاشتباك مع هؤلاءِ المتوحشين ، سأكونُ في خطَر ؛ إذ في حال إفلاتِ واحد منهم فقط سيُخبر بوجودي كلَّ قومه ، ولن يلبثَ أن يعودَ بجموعٍ

منهم للثأرِ والاقتصاصِ مني . وبناءً على هذا رأيتُ أنَّ مـن
واجبي أن أظلَّ بعيداً ولا أُشعرَ أحداً بوجودي .

وبَقِيتُ ملتزماً هذا القرارَ عاماً كاملاً ؛ فلم أذهَبْ إلى
المرتفع حتى لا أجدَ نفسي مُنساقاً وراءَ خِطَطي الماضية. وقد
أبعَدْتُ زَوْرقي إلى الناحية الشَّرقية من الجزيرة، حيث وضعتهُ
في مخبأ بين الصخور، لا يُمكن أن تأتيَ إليه زوارقُ المتوحشينَ
نظراً لوجود تياراتٍ في الاتّجاه المعاكس.

كلَّ هذه المدةِ قَضَيْتُها مُنزوياً، ومقتصراً على أعمالي
الاعتيادية. فلم أدقَّ مسماراً في خَشَبَـة خوفَ أن يُسْمَعَ
الصوتُ . وكنت كلَّما أشعلتُ ناراً ، للضَّرورة، أظلُّ خائفاً
لأنها تُرى من مكانٍ بعيد. وحتى أتفادَى ذلك نقلْتُ كلَّ ما
يتطلّبُ ناراً إلى الحَظيْرةِ التي أقمتُها في الغابات. وهنـاك
عَثَرْتُ على كَهفٍ صِرْتُ أوْقِدُ فيه. وكانت تحجُبُ مدخلَ
هذا الكهفِ كتلةٌ من الصخر. وقد عثَرْتُ عليه بينما كنت
أقطَعُ فروعَ الشجر لأحولَها إلى فحم، لأنني وجَدْتُ ذلك
أسلَمَ لتفادي الدُّخان.

عندما اكتشفتُ الكَهْفَ دخلْتُه، فوجَدْتُ أنه واسعٌ ،
وأنني أستطيع أن أقفَ فيه منتصباً. ولكنني خرجْتُ منـه
بسرعة وأنا خائف، لأنني رأيتُ في زاوية منه عينَيْن تلتمعان.
بعدَ لَحظَاتٍ استعَدْتُ شجاعتي . ودخلتُ مرةً أخرى

بصورةٍ فُجائية . ولكنني لم أخطُ ثلاثَ خطُواتٍ حتـى
تضاعفَ خوفي وجرَى العَرَق الباردُ من جميع أنحاء جَسَدي .
ذلك أنني سَمِعْتُ تنهُّداً عَمِيقاً . ومع ذلك سيطرتُ على
نفسي وتقدَّمْتُ ، فرأيْتُ تيساً عجوزاً في حالة نَزْع . فدفعتُهُ
لأحملَهُ على الخروج؛ فحاولَ أن ينهَضَ ولكنَّهُ لم يَسْتَطِعْ
فتركتُهُ حيث هُوَ اعتقاداً مني أنه ، ما دامَ حياً ، سيفْزِعُ أي
متوحش إذا حاولَ دخولَ الكهف .

واكتشفتُ داخل الكهفِ ممراً ضيقاً لا يُمكنُ اجتيازُهُ إلا
زَحفاً ؛ فتركتُ استكشافَهُ إلى وقتٍ آخر . وفي اليوم التـالي
عُدْتُ ومعي ستُّ شموعٍ كبيرةٍ من شَحْمِ الماعز . وبعْدَ أن
زحفْتُ عَبْرَ النَّفَقِ الضيِّق مسافةَ عَشَرةِ أمتارٍ وجَدْتُ
نفسي في مغارة متَّسعَةٍ يَصِلُ ارتفاعُ سَقْفِها إلى نحو عشرين
قَدَماً . إنني على ثقة من أنها أجمَلُ مكانٍ في الجزيرة ، وأحقُّ
مكانٍ بالزيارة . لقد كانت الجدرانُ تعكِسُ ضوءَ الشموعِ
ببريقٍ أخّاذ ، فلا أدري أكانت من الماسِ أم غيرِهِ مـن
الحجارةِ الكريمةِ أم مِنَ الذهب . ولَعلَّ هذا الافتراضَ
الأخير هو الأقربُ إلى الصَّواب . لقد كانَتْ أجملَ مغارةٍ
رأيتُها في حياتي . كانت أرضُها مفروشةً برمل ناعمٍ ، ولم
يكن ، فيها أثرٌ للرُّطوبة أو للحشَراتِ السَّامَّةِ ، أو الغازاتِ .
الشيءُ الوحيدُ الذي يضايق فيها هو مَدْخَلُها . ولكنَّ هذا

المَدْخَلَ هو الذي يجعَلُ منها مكاناً أميناً . من أجل ذلك
قدَّرْتُ أنْ أضعَ فيها الأشياءَ التي أحرِصُ عليها كل الحِرْص ،
وهيَ أسلحتي وذخيرتي . وهكذا نقلتُ إليها كلَّ فائضٍ من
السلاحِ والذخيرةِ لا أحتاجُ إليه في قصري من أجل الدفاع .

كان ذلك في العامِ الثالثِ والعشرينَ لهبوطي في الجزيرة .
ولولا خوفي من المتوحشين لاطمأننْتُ إلى البقاء هُنا حتى آخرِ
أيامي ، فهذه المغارةُ أصلحُ قبرٍ أدفنُ فيه نفسي عندما يَحين
أجَلي . وقد ألِفْتُ الحياةَ على جزيرتي ، وصِرْتُ أجِدُ
السَّلوى مع ببَّغائي الذي علَّمْتُهُ مخاطبتي خلال المدةِ التي
عشْناها معاً وهي ستّةٌ وعشرونَ عاماً . كذلك رافقَني كلبي
ستّةَ عشَرَ عاماً ، وكان نِعْمَ الرَّفيقِ . ثم ماتَ من الكِبَر .
أما هِرَري فلم أكن أحتفظُ إلاّ باثنَيْن أو ثلاثةٍ من أحسَنِها ؛
وكنتُ أُغْرِقُ الباقيةَ وقتَ وِلادَتِها . وكانَ يُسَلّيني كذلك
جَدْيان يأكلانِ من يدي وببَّغاوانِ صغيرتانِ بدأتا تَلْفُظان
« روبنسون كروزو » . كذلك كانَ عندي بعضُ الطيور البحريةِ
التي قبَضْتُ عليها وقَصَصْتُ لها جوانحَها ، وتركْتُها تعشّشُ
وتبيِضُ في الغابةِ الصغيرةِ التي زرَعْتُها عند قصري .
بالاختصار أنا راضٍ عن حياتي ، قانعٌ بها ، لولا هؤلاء
المتوحشون .

١٢ . روبنسون ينقذ جمعة

في شهر كانونَ الأوّل ، وهو شهْرُ الحَصاد ، كنتُ أبيتُ
في مزرعتي أغلبَ الأحيان . وذاتَ صباحٍ خرجتُ قبلَ الفجر
ففوجئتُ برؤية ضوء على الشاطىء ، يَبْعُدُ نحوَ نصف فَرْسَخ
ولكنَّهُ لم يكنْ في المكان الذي تعوَّدَ أن ينزل فيه هنودُ القارَّة
بل كان — وهذا ما أثارَ قلقي — أقربَ إلى قصري . وقد حمَلَني
الخوفُ على الاختباء في كَهْفٍ لم أجِدْ نفسي فيه أميناً .
فقرَّرْتُ العَوْدَةَ إلى مقرّي . وما إنْ أصبحتُ فيه حتى
سحبتُ السُّلَّم واستعدَدْتُ للدفاع . حَشَوْتُ جميعَ مسدَّساتي
وكذلك البنادقَ التي وزَّعْتُها في فتَحاتِ الحصنِ الخارجيّ ،
وقرَّرْتُ أن أكافحَ حتى النَّفَسِ الأخير . وظَلَلْتُ هكذا
ساعتَيْن أنتظرُ هجوم الاعداء . ولكنني لم أستطِعْ صبراً
لمعرفةِ ما يَجْري في الخارج . فصَعَدْتُ إلى أعلى الصَّخرةِ ،
وتمدَّدْتُ على بطني ، ورُحْتُ أنظرُ من خلال المنظارِ المكبِّر
فرأيتُ تسعةً من المتوحِّشين يتحلقون حول نار . كان معهم
زورقان سحبوهما إلى الشاطىء في انتظار الجَزْر فوجَدْتُ
بعضَ الاطمئنان إذْ أدركتُ أنَّ في إمكاني أن أرُوحَ وأجيءَ
خلال الجَزْر دون أن ألقى أحداً ؛ وهكذا أستطيع أن أواصل

أعمال الحصاد، شريطة الا يُكتَشَفَ أمري.

وقد تمَّ كل شيء حسبما توقعت؛ فما إن بدأ الجزر متجهاً نحو الغرب، حتى قفزوا في زورقَيْهم وانصرفوا. وقد لاحظتُ أنهم رقصوا بعضَ الوقت قبلَ رحيلهم، وكانوا عُراةً، على ما بدا لي.

وما إنْ رحلوا حتى خرجتُ وأنا أحملُ بندقيتَيْن على كتفيَّ، ومسدَّسين في حزامي، وأتمنطقُ بسيفي العريض. ذهبتُ إلى المرتفعِ الذي اكتشفتُ منه للمرة الأولى آثارَ أكلةِ لحومِ البشرِ هؤلاء. وهناك وجَدْتُ أن ثلاثةَ زوارقَ أخرى كانت راسيةً في تلك البقعةِ وأنها عادتْ برُكّابها نحو القارة.

ونزلتُ إلى الشاطىء فرأيت آثارَ تلك العادةِ الرهيبةِ؛ فشعرتُ بالثورة مرةً أخرى. وقرَّرْتُ أن أهاجمَ أوّلَ مجموعة أصادفُها من هؤلاء القوم في المستقبل.

كانت زياراتُهمْ للجزيرة، كما يبدو، نادرة؛ فقد مر أكثرُ من خمسة عشَرَ شهراً منذ المدة الأخيرة التي رأيت آثارَهم فيها. وقد عشتُ بعد ذلك في قلقٍ دائمٍ لم أعرف كيف أتخلّصُ منه. كما أنه لازمني ذلك الاصرارُ على الايقاع بهم، صارفاً من الوقت في وضعِ الخطط ما أستطيعُ أن أصرفه في أمورٍ أكثرَ فائدةً لي. ولم أكن أدركُ أنني إذا قتلتُ نفراً فسيأتي غيرُهم؛ فإذا مضيتُ في القتل على هذه الصورة

أصبحتُ أكثرَ وحشيةً من أولئك الذين أعاقبُهم على التوحُّش.

حوالَى منتصفِ شهر أيار هبَّتْ عاصفةٌ شديدةٌ رافقتْها رعودٌ وبروق. وفي اليوم التالي، وكانت العاصفة لا تزال على أشدِّها، فوجئتُ بسماع صوت، من جهة البحر، أشبهَ بصوت مِدفع. فأسرعتُ إلى أعلى الصخرة بواسطة سُلَّمي، فإذا بضوء يتبعُه صوتُ طلْقةٍ ثانية، من الجهة التي قذفَ فيها التيارُ زورقي. فقرّرت أن هناك سفينةً تطلب النجدة. قلت في نفسي إنها قد تُنجدني وتخلّصني من سجني. فأشعلْتُ ناراً. ويبدو أنَّ السفينةَ قد رأتِ النارَ، لأنني سمعتُ طلْقةَ مِدفع ثالثةً تلتْها طلَقات.

في صباحِ اليومِ التالي، وبعْدَ أن هدأتِ العاصفةُ، رأيتُ بمنظاري المكبِّر كأنَّ هناك سفينةً راسيةً. فما كان مني إلا أن أخذْتُ بندقيَّتي، وتوجّهْتُ بخطىً واسعةٍ نحوَ الجزء الجنوبي، وصعدْتُ إلى أعلى صخرة، ورحْتُ أنظرُ بالمنظار، فإذا بي أشاهدُ، لسوء الحظ، سفينةً محطَّمةً على الصُّخور التي وصفتُها، قبل الآن، وقلتُ إنَّها مختفيةٌ تحت الماء.

قرَّرْتُ أن أزورَ السفينةَ، لا للتفتيش عما يُمكنُ أن يُفيدَني، بل لرؤية ما إذا كان هناك بعضُ الأحياء الذين أستطيعُ أن أُسعفَهم. وفي صباحِ اليومِ التالي، وكانَ البحرُ هادئاً، أخذْتُ زورقي وتوجَّهْتُ إلى مكان السفينةِ المنكوبة. وفي مدى

ساعتَيْن كنتُ في جوارها . وما إنِ اقتربْتُ حتى أطلَّ علي
كَلْبٌ راح يَنْبَحُ كأنَّه يستجير . فلما ناديْتُه قفزَ إلى الما
وجاءني ، وهو يكادُ يموتُ من الجوع والعطش . فأطعمْتُه
وقدَّمْتُ لَه ُماءً .

ولم يكن على ظهرِ السفينةِ أيُّ حي . وقَدْ وَجَدْتُ
بحارَيْنِ غرقا وهما متعانقان . ويبدو أن المياهَ قد غَمَرَتِ
السفينةَ التي قُذِفَتْ بعد ذلك بين صخرين سَمّراها في مكانها .
ويلوحُ أن السفينةَ ، وهي إسبانيةُ الصُّنع ، كانت متجهةً من
« بونس ايرس » إلى هافانا ثم إلى إسبانيا .

وجدْتُ في إحدى الحُجَر عدَّةَ بنادقَ وقرناً كبيراً من
البارود ، فأخذْتُ القرنَ وتركتُ البنادقَ لأنَّ عندي ما
يَكفيني من السّلاح . كذلك سمحتُ لنفسي بأخْذ رفشٍ
صغيرٍ للنار ومِلْقَط ، وكنت في حاجةٍ إليهما . وعدا ذلك
حملْتُ ثلاثةَ براميلَ صغيرةٍ لم أعرفْ ما فيها ، وقِدْرَيْن
من النُّحاس ومِشْواةً وغلاّيةَ شكولاتة .

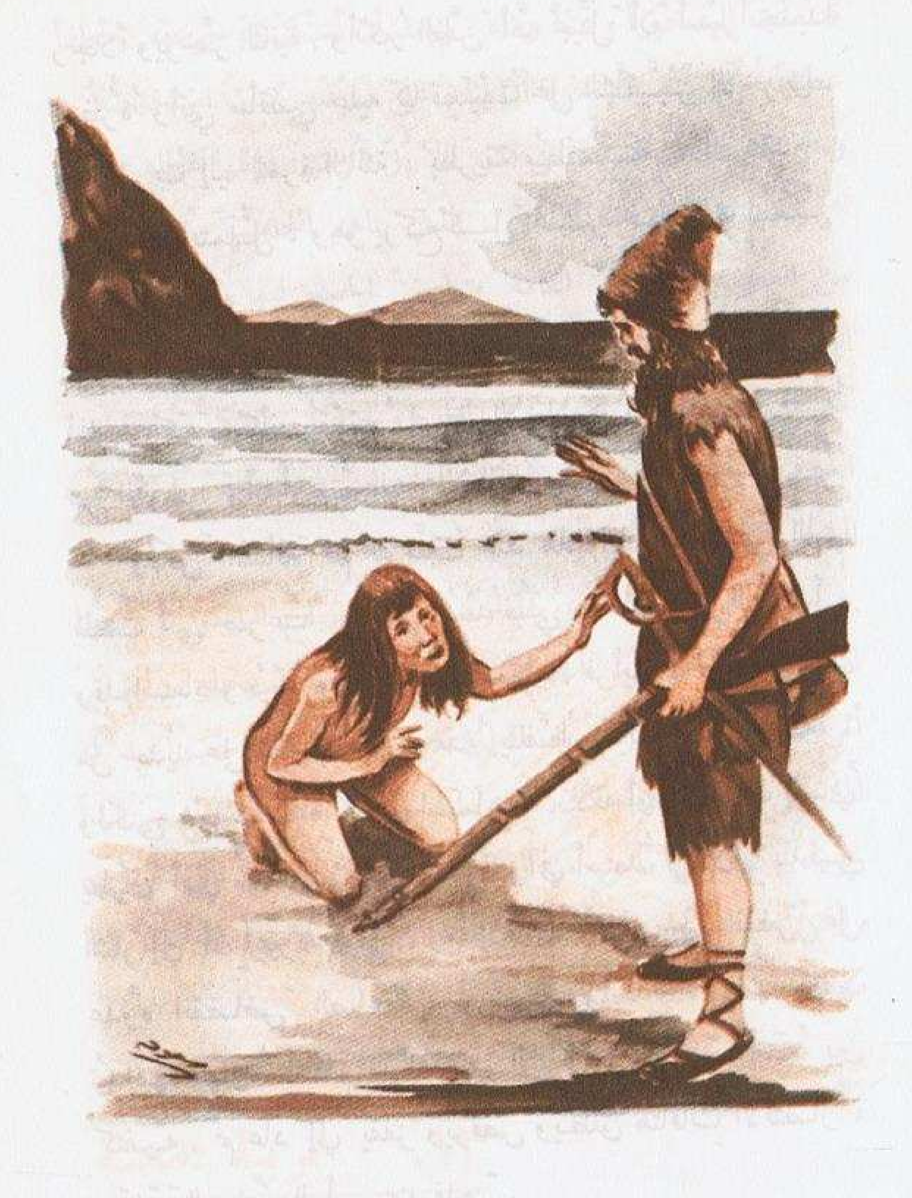
عُدْتُ ومعي الكلبُ . وقضيْتُ الليلَ في الزَّوْرَق. وفي
الصباح حملتُ ما معي إلى المغارة التي اكتشفتُها ، ليكونَ في
مأمن إلى جانب الأشياء الهامةِ الأخرى التي خبّأتُها هناك .
ووجدْتُ أحدَ البراميلِ الثلاثةِ ، وهو أصغرُها ، مملوءاً بنوعٍ
من « الروم » غيرِ جيِّد . أما البرميلانِ الآخرانِ فقد اشتملا على

عدةِ أشياء مفيدةٍ منها بعضُ المشروبات الممتازةِ والمربيات
والقمصان وربطات العُنقِ والمناديلِ وثلاثةُ أكياس كبيرةٍ من
العملة الفضيّة وخمسونَ قطعةً فضيةً أخرى وغيرِ ذلك . وكم
كنتُ أتوق إلى العثورِ على جواربَ ولكنني اكتفيتُ بأخذ
زوجَيْ الأحذية اللّذَيْن كان ينتعلُهما الغريقان المسكينان .
ولواستطعْتُ أن أنفذَ إلى باطن السفينة لَعُدْتُ بأشياء
ثمينةٍ كثيرة .

بعد ذلك أعدْتُ الزورقَ إلى مكانِه المعهود ورجعْتُ إلى
حياتي العادية ، فقضيْتُ عامَيْنِ آخرَيْنِ كان في استطاعتي أن
أجدَ فيهما السعادةَ لولا أنَّ خياليَ كان يزدَحِمُ بألف مشروعٍ
ومشروعٍ للنجاة من هذه الجزيرة ؛ وهذا ما كان يعذّبني ويملأ
نفسي بالقلق المستمرّ ، بعد أن كنتُ راضياً بمصيري ، مستسلماً
لمشيئة الأقدار .

وكنتُ لا أزالُ أراقبُ الشاطىء في انتظار عَوْدة الهنود .
وذات صباحٍ رأيتُ ستّةَ زوارقَ تصِلُ إلى الجزيرة . وفي
الحال أعدَدْتُ كلَّ شيء للمعركة . وأخذْتُ مِنظاري ورُحْتُ
أراقبُ القادمين .

كانوا نحوَ ثلاثين رجلاً . وقد رأيتُهم يَجُرُّون مَعَهُمْ
أسيرَيْن اثنين ، ما لبثَ أحدُهما أن سَقَطَ صريعاً بضربةِ
هراوةٍ أو ما يشبه الهِراوة . وسُرْعانَ ما انقضّ عليه اثنانِ



« ولما اصبح امامي ركع ، كأنه يقسم لي على الاخلاص . »

أو ثلاثةٌ من هؤلاء الجلاّدين وراحوا يُقَطِّعون جَسَدَه لإعداده لوليمتهم الجهنمية.

في أثناء ذلك كان رفيقُهُ ينتظرُ نَفْسَ المصير. فلمّا رأى نفسَهُ حراً انطلَقَ انطلاقَ السَّهمِ محاولاً إنقاذَ نفسِهِ من الموت. فتبعَهُ ثلاثةٌ من أعدائه. واعترضَهُ ذراعٌ بحري؛ فما كان منه إلا أن ألقى بنفسِهِ في الماء، وراح يَسْبَحُ بسرعةٍ فائقة. وما إن وصَلَ إلى الناحية الأخرى حتى واصلَ عَدْوَهُ السريع. وكان يَعْدو في اتجاه مسكني. أما مطارِدُوهُ فقد كان اثنانِ منهم فقط يُحسنان السباحة؛ وقد سبحا وراء الهارب، في حين عادَ رفيقُهما، متمهِّلاً، من حيث أتى. غير أنهما قَطَعا الفاصلَ البحريَّ في ضِعْفِ الوقت الذي احتاجَ إليهِ عدوُّهما ليصلَ إلى الجانب الآخر.

هنالكَ انحدرْتُ ومعي بندقيّتي؛ وسُرْعانَ ما أصبحْتُ بين الفريقين. ولما استقبَلْتُ الشقيّيْنِ عاجلْتُ الأولَ بضربة من كعب بندقيّتي أرْدَتْهُ في الحال. ولما رأى الثاني ما حلَّ برفيقِهِ، توقّفَ وراح يُرَكِّبُ سهماً في قوْسِهِ ليُطْلِقَهُ عليَّ. فكنتُ أسرَعَ منه بتسديد بندقيّتي إلى صَدْرِهِ.

أما الهاربُ فقد كان في غايةِ الذُّعرِ من طَلْقَةِ البندقية، رغم أنني أنقذْتُهُ من عدُوَّيْهِ. ورُحْتُ أشيرُ إليه بالاقتراب ولكنّهُ كان أشدَّ رَغْبةً في الهرَب؛ لأنه ظلَّ متردِّداً، يقدِّم

رجلاً ويؤخرّ الثانية . وأكبرُ الظنّ أنّه تخيّلَ أنّ أسْراً جديداً
ينتظرُه وأنني سأقضي عليه كما قضيْتُ على الشقيّيْن الآخرين .
ولما أشرتُ إليه للمرة الثالثة ، بطريقة مُطمْئِنَة ، أن يتقدم ،
سار نحوي بتمهّل ، وهو يركَعُ كلَّ عشْرِ خطُواتٍ ليُعبّرَ
لي عن امتنانِه .

وظللْتُ أبتسمُ له لأُشيْعَ الاطمئنانَ في نفسه . ولما أصبح
أمامي ركَعَ ، كأنه يُقْسِمُ لي على الاخلاص والولاء . فرفعتُه
عن الأرضِ وأنا أربتُ عليه وألاطفُه بيدي لكي تهدأَ مخاوفُه .

ولكنَّ المسألةَ لم تتوقّفْ عند هذا الحد . فالشقيُّ الذي
ظننت أنني صرعتُه بعَقِبِ بُنْدُقيّتي ، كان لا يزالُ حياً ؛
وقد استعاد وَعْيَه ووقفَ على قدميْه . فرأيتُ الخوفَ يستولي
من جديد على الهارب . وسمعتُه يتلفّظُ بكلامٍ لم أفهمْهُ ،
ولكني شعرتُ بلذةٍ كبرى لسَماعِه ، لأنه أولُ صوتٍ إنسانيٍّ
يطرُقُ أذني منذُ سنينَ طويلة . ولما رآني أستعدُّ لإطلاقِ بندقيّتي
أشارَ إليَّ أن أعيرَهُ سيفي . وما إن أخذَهُ مني حتى انقضَّ على
عدوِّه انقضاضَ الصاعقة ، وبضربةٍ واحدةٍ ، ومهارةٍ لا
تُدانيها مهارةُ أعظم سيّافٍ في الشرق ، دحرجَ رأسَهُ بين
كتفيْه . ثم عادَ إليَّ يقفز ويرقص ويُطلق هتافاتِ الانتصار ،
ووَضَعَ السيفَ والرأس عند قدميّ .

بعد هذا أخذتُه إلى المغارة القريبة من مزرعتي . وهناك

قدّمْتُ إليه خبزاً وعنباً وماء . وبعد أن أسْكتَ جوعَه وأطفأ
عطشَه أفهمتْهُ بالإشارة أن ينامَ على مرْقَدٍ كنتُ استخدمُهُ ،
وهو عبارةٌ عن كوْمة من قشّ الارزّ فُرِشَ فوقها غطاء .

كان هذا الشاب البدائي ، الذي يناهز الخامسةَ والعشرينَ
من العمر ، طويلَ القامةِ متناسقَ الجسم ليس في ملامحه
الرجوليةِ أيُّ أثر للقسوةِ والتوحُّش . وبعد أن استراحَ
نحو نصفِ ساعةٍ ، خرج من المغارة ولحقَ بي ، مكرِّراً اشاراتِ
الخضوع والامتنان . وقد أطلقتُ عليه اسم « جُمْعَة » ، لتذكُّرِ
اليومِ الذي أنقذْتُهُ فيه .

قضينا تلك الليلةَ في المغارة . وفي الصباح الباكرِ توجّهْنا
لنرى ما كانَ من أمر أعدائه ، فوجدْنا أنهم قد رحلوا ولم نَرَ
أثراً لقواربهم . فسرْتُ بجمعة إلى قصري ، حيث رحت أعدُّ له
الملابس اللازمةَ لأنه كان عاريَ الجسد . ثم أعدَدْتُ له مرْقَداً
بحيث أكونُ في مأمنٍ منه إذا خطَرَ له أن يعتديَ على حياتي .
ولكنَّ هذا الخادمَ الأمينَ برهَنَ عن إخلاصٍ لا حدَّ له
طوالَ المدة التي عشناها معاً .

١٣. تربية جمعة

بدأت بتعليم جمعة ، فصرْتُ أشغلُهُ في دَرْسِ الحبوب

وتَذْرِيتِها على طريقتي . ولم تَمْضِ مدّةٌ وجيزة حتى أصبح
يُحسِنُ العملَ مثلي ؛ بل تعلّمَ أيضاً كيف يَصْنَعُ الخبز .

لقد أصبحَ عندي الآنَ فمان لإطعامهما ، فلا بُدَّ إذن من
زيادةِ كميةِ الحَبِّ . لهذا اخترْتُ حقلاً أوسعَ من الحقل الماضي
وبدأتُ أسوِّرُهُ . وقد ساعدَني جُمعةُ بمنتهى المهارة والنشاط ؛
وكان فرحاً بالعمل ، لأنه كان يَعْلَمُ أنَّ الأمرَ يتعلّقُ بزيادة
المحصول الذي سنتقاسَمُهُ .

كانَ ذلك العامُ أسعدَ عامٍ قضيتُهُ في الجزيرة . فلَمْ
تَمْضِ مدّةٌ على جمعةَ حتى بدأ يتكلّم الانكليزيةَ بصورةٍ
لا بأسَ بها . لقد تعلّمَ أسماءَ الأشياء التي نستخدمُها ،
والأماكنِ التي أريدُ إرسالَهُ إليها . في الوقت نفسِه استعَدْتُ
أنا الطّلاقةَ في التحدُّث بلغتي القوميةِ التي لم أستخدِمْها في
الكلامِ تلك السنين . ولم يكُنْ جُمْعَةُ يَسُرُّني بكلامه
بل بذكائه وطيبتِهِ . وقد بدأتُ أحبُّهُ حباً جمّاً ، كما أصبح
هو يُبَرْهِنُ لي عن تعلّقه بي وعاطفتِه نحوي .

وسألتُ جُمْعَةَ يوماً إن كانَ الإبحارُ من الجزيرةِ إلى
القارّةِ يَستغرقُ وقتاً طويلاً وإنْ كانَ السَّفَرُ خطراً . فأجاب
بأنه لا خطَرَ على الاطلاق ، وأنَّ نفسَ الرياحَ تَهُبُّ كلَّ
صباحٍ كما يُوجد نَفْسُ التيار . أما بعدَ الظّهر فتنقلبُ الرياح
والتيّارُ إلى الاتجاهِ المعاكِس . وقد علِمْتُ فيما بعدُ أن تلكَ

الظاهرةَ سَبَبُها نهرُ « اورينوك » الكبير . الذي تقعُ جزيرتي
في مواجهةِ مَصَبِّه .

وقد أخبرَني جُمْعَةُ أنه بعيداً وراءَ القمر (ويقصدُ مكانَ
غروبَ القمر . أي في غربِ بلاده) يوجد رجالٌ بيضٌ لهم
لحىً مثلي . وقد قتلوا « كبير عدد رجال » : وقد فهمتُ منه أنه
يقصدُ الاسبانيين الذين اشتهروا بالقسوة والذين يكرَهُهُم
الهنودُ كُرْهاً شديداً . عندها سألتُه كيف يُمْكِنُ الذهابُ إلى
مكان الرجال البيْض . فأجاب بأني أستطيع الوصولَ «بزورقين»
يعني بزورقٍ كبيرٍ بحجم زورقَيْنِ اثنيْن .

وقد فرحتُ بذلك إذ بدأ الأملُ يعود إلى نفسي . بأنَّ في
استطاعتي أن أغادرَ الجزيرةَ بمعُونة خادمي الأمين . وبرفقة
هذا « المتوحش » العزيز قضيتُ ثلاثَ سنوات كاملة في سعادة
تامة . وقد أصبح عبْدي مسيحياً مثلي . وصرْنا نستمتعُ معاً
بقراءة الكتابِ المقدّس .

وعندما أصبحَ يُجيدُ الانكليزيةَ إلى حد ما . رَوَيْتُ له
مغامراتي وقصّةَ نزولي إلى هذه الجزيرة . كما شرحتُ له سر
البارود والرَّصاصِ وعلَّمْتُهُ استخدامَ البندقيَّة . وزيادةً على
هذا أهديتُه سكيناً فرح بها فرحاً لا يوصف . وصنعتُ له
منْطقَةً جلديّةً ليعلّقَها بها . ويعلّقَ فراعةً من شأنها أن
تخدمَهُ في أمور كثيرة .

وأريْتُهُ ذاتَ يومٍ فلوكتَنا التي قذفَتْها الأمواجُ على

الصخور يومَ أن غرقتِ السفينة . فأطالَ النظرَ فيها . ولمّا سألتُهُ عن سبب ذلك أجابَ بأنَّ فلوكةً مماثلةً موجودةٌ عند قبيلتِهِ ، وأن رجالاً بيضاً أتوْا بها . وفهمتُ منه أنَّ عددَ الرجالِ البيضِ يبلُغُ سبعةَ عشرَ شخصاً وأنهم يعيشونَ مع قومِهِ . فأدركتُ أن هؤلاء الرجالَ هم من بحّارة السفينةِ التي رأيتُها تتحطّمُ على الصخور والتي أخذتُ منها ما استطعتُ . وأبديتُ له عجبي كيفَ أن قبيلتَهُ لم تأكلْ هؤلاء البيضَ . فردَّ بأنَّ القبيلةَ عقدَتْ معهم الهُدنةَ ، وأنهم لا يأكلونَ سوى أسرى الحرب .

بعدَ مُدّةٍ صعدْتُ وجُمْعةَ فوق إحدى الهضابِ المرتفعةِ ، التي تُشْرِفُ على القارّة الأميركية . وكانَ الجوُّ في غايةِ الصفاءِ . فكانت السواحلُ الأميركيةُ ظاهرةً تماماً . فما كان من جُمْعةَ إلا أن راح يقفزُ طرَباً وهو يصيح : « يا فرحة .. ينتظرُ بلادي .. هناك قومي ؟ »

كانت تعابيرُ وجهِهِ تصوّرُ مبلغَ السعادةِ التي كان يشعُرُ بها . وقد قرأتُ في عينيْهِ الملتمعتيْنِ كم يتمنّى أن يعودَ إلى موطنِهِ . وقد أقلقتني تلك المغالاةُ في حبِّ العودة إلى أهله وبلادِهِ . وداخلَني فيه بعضُ الشكِّ ؛ وأيقنْتُ أنه . في أوّلِ فرصةٍ تسنحُ لهُ للرّجوع ، لن يتأخّرَ عن تركي . ناسياً كلَّ ما صنعْتُهُ من أجله . ومن يدْريني فقد ينبئ قومَه

بوجودي في هذا المكان ، فيأتون إليَّ ليقيموا وليمةً على لحمي .

وقد ظلّتِ الغيْرَةُ تفعلُ فعلَها بي مدةً من الزمن ، عاملتُ فيها جُمْعةَ بتحفُّظٍ ولم أُبدِ لهُ العطفَ الذي كنتُ أبديه .

ولكنني في الواقع ظلَمْتُ هذا المسكينَ ، لأنَّهُ لم يفتُرْ لحظةً عن خدمتي وإظهارِ مدى تعلّقِهِ بي . ولم يلْحظْ تغيُّري معَهُ ، لأن السّذاجةَ والصدقَ ظلاّ واضحيْن في كلامِهِ وتصرُّفاته . وهذا دليلٌ واضحٌ على أنّهُ لم يفكّر قطّ في خِداعي .

وفي يومٍ آخرَ كُنّا على نفسِ التلّة وكانتِ السماءُ غائمةً إلى درجة أن القارّةَ كانت محجوبةً عن الانظار . فسألتُ جُمْعةَ فجأةً إنْ كان يتمنّى أنْ يرْجِعَ إلى بلادِهِ ، فأجاب :

« نعم .. أنا يفرح كثير رؤية قومي ! »

قلت : « ولكنْ ، ماذا ستفعلُ هناك ؟ أتريدُ أن تعُودَ متوحّشاً وتأكلَ اللّحمَ البشريَّ ؟ »

فبدا عليه الألمُ من هذا السؤال ، وقال وهو يهزُّ رأسَهُ نفياً :

— « لا ! جُمْعة يحكي هم يعيش جيد ، يعبد الله ، يأكل خبز قمح ، لحم حيوان ، حليب ، يأكل لا أبداً بشر ! »

أجَبْتُ :

— « ولكنّهم سيأكلونكَ في هذهِ الحال ! »

قال : « لا .. هم لا يقتل أنا ! هم يحب يتعلم ! »

وأضافَ أن أهلَهُ تعلّموا كثيراً من الرجال المُلْتحين الذين أقبلوا بالفلوكة . وسألتُهُ هل يريدُ العودة . فأجاب بأنه لا يستطيعُ السباحةَ إلى هناك . فوعدْتُهُ بصُنْعِ زورقٍ يُوْصِلُه إلى أهله ، وبأن أكونَ معهُ ، ففرِحَ غايةَ الفرح ؛ وأكّدَ لي أن قومَهُ سيحترمونني لأنني أنقذْتُهُ .

واستقرَّ رأيي على أنْ أقومَ بهذه الرحلةِ للقاء أولئك القَوْم لعلّي بذلك أستطيعُ العودةَ إلى بلادي .

وأخذْتُ جُمْعَةَ إلى حيثُ كان زورقي . فركبْناهُ ، وأخذَ هو يقودُهُ ؛ فإذا به يقودُهُ بقوّةٍ ومهارةٍ فيتحرّكُ بسرعة مضاعفة عما أقودُهُ أنا . ولكنّهُ قالَ إن الزورقَ لا يتحمّلُ مثلَ هذه الرحلة .

ولما أريْتُهُ الزَّوْرَقَ الآخرَ ، قال إن حَجْمَهُ يساعدُ على الوصولِ مع نقلِ كلِّ ما أريدُ نقلَهُ . ولكنَّ الزورقَ ، الذي ظلَّ ثلاثَ سنواتٍ في مكانِهِ من غير ان ينزل إلى الماء ، كان مُتَشَقّقاً ومنخوراً في أماكنَ متعددة .

وعلى هذا فقد كانَ علينا أن نفتّشَ عن شجرةٍ مناسبة .. الشجرُ كثيرٌ ، ولكنَّ المهمَّ أن نعثرَ على شجرةٍ قريبةٍ من الشاطىء ، بحيث يمكننا ، بعد أن نحوّلَها إلى زورق ، إيصالُ الزورقِ إلى البحر . وقد وَجَدَ جمعةُ شجرةً ، تستجيب

لجميع الشروطِ ، ولم أكن أعرِفُ هذا النوعَ من الخشبِ حتى ذلكَ الحينِ .

خلالَ شهرٍ تمكّنّا من صُنع الزَّورق . وفي اسبوعَيْن دفعنْاه بـوْصَةً بـوْصَةً إلى الماء . وقد أظهرَ جمْعَةُ براعةً كبيرةً في كلِّ تلك الأعمالِ . وقرّرْتُ أن أقيمُ صارياً ؛ فقطعَ جُمْعَةُ شجرةً صَنَوْبَرِيَّةً مستقيمةً تَصْلُحُ تماماً لصُنْعِ صارٍ ثم أعَدَّها . وبعدَ أن ركّبْنا الصاريَ ، رُحْتُ افتّش ، بين الاقمشةِ القديمةِ التي عندي ، عَنْ قِطَعٍ أستطيعُ أن أخيطَ منها شِراعاً . ونَجَحْتُ في ذلك وجَهَّزْتُ قاربي تجهيزاً ممتازاً بالنسبة إلى ما لدَيْنا من الإمكانات . وقد استغرقَ ذلك شهرَيْن أيضاً . وهكذا أصبحَ القاربُ مستعداً للإبحار بنا إلى القارّة ، حيث تقيمُ قبيلة جُمْعَة . ولكنَّ موسمَ الأمطارِ كان قد أقبلَ ، فحمَيْتُ القاربَ بفروع الشجرِ . ولبثْنا ننتظرُ قُدومَ الفصل الذي نستطيعُ فيه السفرَ ، أي خلالَ شهرَيْ تَشْرينَ الثاني وكانونَ الأوّلِ . وكنتُ قد بدأتُ سَنَتي السابعةَ والعشرينَ في الجزيرة .

١٤. معركة مع المتوحشين

عندما أقبلَ فَصْلُ الجفافِ بدأتُ أعِدُّ العُدَّةَ للرحيل .

وفي ذاتِ صباحٍ أقبلَ عليّ جُمُعَةُ يَعْدو ، وقَفَزَ من فوق السُّور ، وهو يصيح :

— « سيد ، سيد ! يا ألم ! يا شرّ ! »

قلت : « ما بكَ ، يا جُمعة ؟ ماذا جرى ؟ »

أجاب : « أوه ! هناك واحد ، اثنان ، ثلاثة قارب ! »

وعبثاً حاولْتُ أن أهدىء مخاوفَهُ ؛ فقد كانَ على يقينٍ أن القادمينَ ما جاؤوا إلا ليفترِسُوه !

قلت : « هل تعرفُ كيفَ تقاتل ؟ »

قال : « نعم ! أنا يموتُ من أجل سيد ! »

وصعدْتُ فوقَ الصخرة ، ومعي منظاري : فرأيْتُ واحداً وعشرينَ رجلاً من المتوحّشينَ يقودُونَ ثلاثةَ أسْرَى وقد قدموا بثلاثةِ قواربَ أرسَوْها بالقُرْب من خليجي الصغير .

ونزلتُ فحشَوْتُ أسلحتي واقتسمتُها مع جُمعةَ . فأعطيْتُهُ مُسدَّساً وثلاثَ بنادقَ ، إلى جانب فرّاعتهِ وسكّينهِ ، وأخذْتُ مثلَها ، وسيفي معلّقٌ إلى جانبي . وقلت له أنْ يتبعَني خُطوةً خُطْوةً دون كلامٍ ، وأنْ يفعلَ ما أفعلُ . وسلكْتُ طريقاً خاصّةً لأصِلَ إلى الغابة التي تُشْرِفُ على الجُوْنِ ، دُوْنَ أن يكتشفَنا المتوحّشون .

سِرْتُ في الغابة بهُدُوء ، وجُمُعَةُ على أثري حتى وصلْنا إلى مَشارِفها . ورُحْتُ أنظرُ من وراءِ الأشجار ؛

فرأيْتُ أولئك الأشقياءَ متحلّقين حولَ النار وهم يلتهمونَ أحد الأسرى الثلاثة ؛ وعلى خطوات منهم أسيرٌ أبيض مُلقىً على الأرض وهو مقيّد . هنالك قلتُ لجمعة : « هيا ، يا جمعة .. إتبَعْ أوامري ، وقلّد كلَّ حركةٍ من حركاتي ! » ثم صوّبْتُ نحوَ المجموعة ، وقلتُ لجمعة :

— « مُسْتَعِدّ ؟ »

— « نعم ! »

— « إضرِبْ ! »

وأطلق كلٌّ منا بُنْدُقِيّةَ الفتيل ، وكان جُمُعَةُ هو الأسبق ، وقد أردى اثنَيْنِ وجرَحَ ثالثاً . أما أنا فقد قتلْتُ واحداً وجرَحْتُ اثنين . وبوُسْعِ المرءِ أن يتخيَّل ماذا حَدَثَ للجماعة الذين رَأَوْا رفاقَهُمْ يتساقطون ، وهم لا يعرفون السَّبب ولا يَدْرُونَ من أين صُبَّ عليهِمْ هذا البلاء . لقد نَفَروا مَذْعورِيْنَ لا يَدْرُوْنَ من أيِّ جهةٍ يجب أن يَفِرُّوا . وألقيْتُ بندقيةَ الفتيلِ وتناولْتُ بندقيةَ صيدٍ ، وفَعَلَ جُمُعَةُ مثلي . ولما كانت بندقيّتانا محشوّتَيْنِ في هذه المرّة بقِطَعٍ صغيرةٍ من الرَّصاصِ ، فقَدْ سَقَطَ اثنان فقط ؛ ولكنّ عَدَدَ الجَرْحَى كانَ أكبرَ ؛ وقَدْ جرَى هؤلاء هارِبين والدماءُ تَسِيْلُ منهم .

وأخذتُ بندقيةَ فتيلٍ ، وخرَجْتُ من الغابة وأنا أركُضُ

مُسْرِعاً وأصرخُ صُراخاً مُرْعِباً . وجُمْعَةُ يفعَلُ مثلي .
وجَرَيْتُ نحوَ الأسيرِ الأبيضِ . فحلَلْتُ قيودَهُ وقدَّمْتُ له
ماءً وقطعةَ خبزٍ التَهَمَها فَوْراً . وكان حارساهُ قد تركاهُ منذ
أوَّلِ طلقَيْنِ وجرَيا نحوَ القارب ؛ فأمَرْتُ جُمْعَةَ بأن
يتَتبَّعَهما .

وسألتُ الأسيرَ . بالبرتغالية . عن اسمه واسم بلادِهِ
فأجابني باللاتينية : «كريستيانوس» (أي مسيحي) . ثم عرَفْتُ
أنَّهُ إسباني ؛ فجمعْتُ الكلمات التي أعرِفُها من الاسبانية .
وسألْتُهُ عمَّا إذا كان قادراً على القتال . فلما أظهرَ استعدادَهُ
أعطَيْتُهُ سَيْفي وأحدَ المسدَّسات .

وأسفرَتِ المعركةُ عن قتلِ جميع الأشقياء إلا أربعةً تمكَّنوا
من رُكوب أحدِ الزوارق . وقال لي جُمْعَةُ بأن علينا أن
نتَعقَّبَهُمْ ، وإلا عادوا إلينا بعددٍ كبير من رفاقهم وقضَوْا
علينا .

فتوجَّهْنا إلى زورقٍ من زوارقِهم . ولكنْ ما إنْ وضَعْنا
أقدامَنا فيه حتى رأَيْنا في قَعْرِهِ أسيراً هندياً مربوطاً بالحبال .
وما إن نهضَ بعدَ أن فكَكْنا قيودَهُ حتى رأيتُ جمعةَ يرتمي
عليه ويُوسِعُهُ عناقاً وتقبيلاً ، وهو يبكي ويضحك ، ثم يُطلق
أصواتَ الفرحة ويقفز ... ولما استعاد بعضَ هدوئه عرفت منه
أن الأسيرَ الهنديَّ هو والده . والحقيقةُ أن هذا اللقاء بين الأبِ

والابنِ أثَّرَ فيَّ تأثيراً بالغَ العمق .

وراح يفركُ له يدَيْهِ ورجليه التي تجمَّدَتْ من الرَّبطِ
الطويل . وأعطَيْتُهُ قليلاً من «الروم» ليفرك بِهِ أطرافَ أبيه ،
مما ساعدَ المسكينَ على استعادةِ حركتِهِ إلى حدٍ ما .

ولكن هذا الحادثَ منعَنا من تعقُّبِ الهاربين . وكان ذلك
من حُسْنِ حظِّنا ، إذ لَمْ يَمْضِ على ذلك سوى ساعتَيْنِ
حتى هبَّتْ ريحٌ عاصفةٌ دامت طُولَ الليلِ . ولما كانَتْ هذه
الرِّياحُ قادمةً من الشمالِ الغربيِّ ، فقدْ كانَتْ معاكسةً للهاربين
الذين لا أعتقدُ أنَّهُمْ وَصَلُوا إلى شواطئِهم .

بعد أن نَقَلْتُ ضَيْفَيَّ إلى قَصْري أعْدَدْتُ لهما طَعاماً
كثيراً لأُعيدَ إليهما القُوَّةَ . وكانَ التَرْجُمانُ بيننا هُوَ
جُمْعَة ، لأنَّ الإسبانيَّ كان يُحْسِنُ لغةَ الهنود تماماً . وقد
أمرْتُ عبدي أن يأخُذَ أحدَ القاربَيْنِ ويذهبَ إلى مَيْدان
المعركةِ ليَدْفِنَ القتلى ويعودَ بالأسلحةِ التي تركْناها هناك .

منذ اليومِ التالي لهذهِ الأحداثِ العنيفةِ بدأتُ بالتحدُّثِ إلى
الضَّيْفَيْنِ من أجلِ المستقبل . سألْتُ والدَ جُمْعَةَ أوَّلاً إنْ
كان يتوقَّعُ عَوْدَةَ الهاربين بصحبة جموعٍ لا نستطيعُ مواجهَتها
فأجاب بأنَّهُ يعتقدُ أنَّهم غرقوا في أثناء العاصفة ، وحتى في
حال نجاتِهِمْ فلا بُدَّ أن تقذفَهُمُ الرِّياحُ على الشواطىء
الجنوبيةِ حيثُ يفترِسُهُم أعداؤهم . وعلى فرض أن الحظَّ

خدَمَهم . وعادوا إلى أهلهم فسيَرْوُوْنَ لهم أن الصواعقَ قَتَلَتْ رفاقَهُمْ . إذْ منَ المؤكَّدِ أنَّهمُ اعتقدوا أن المخلوقَيْنِ اللَّذَيْنِ هاجماهم إنما هبطا من السماء .

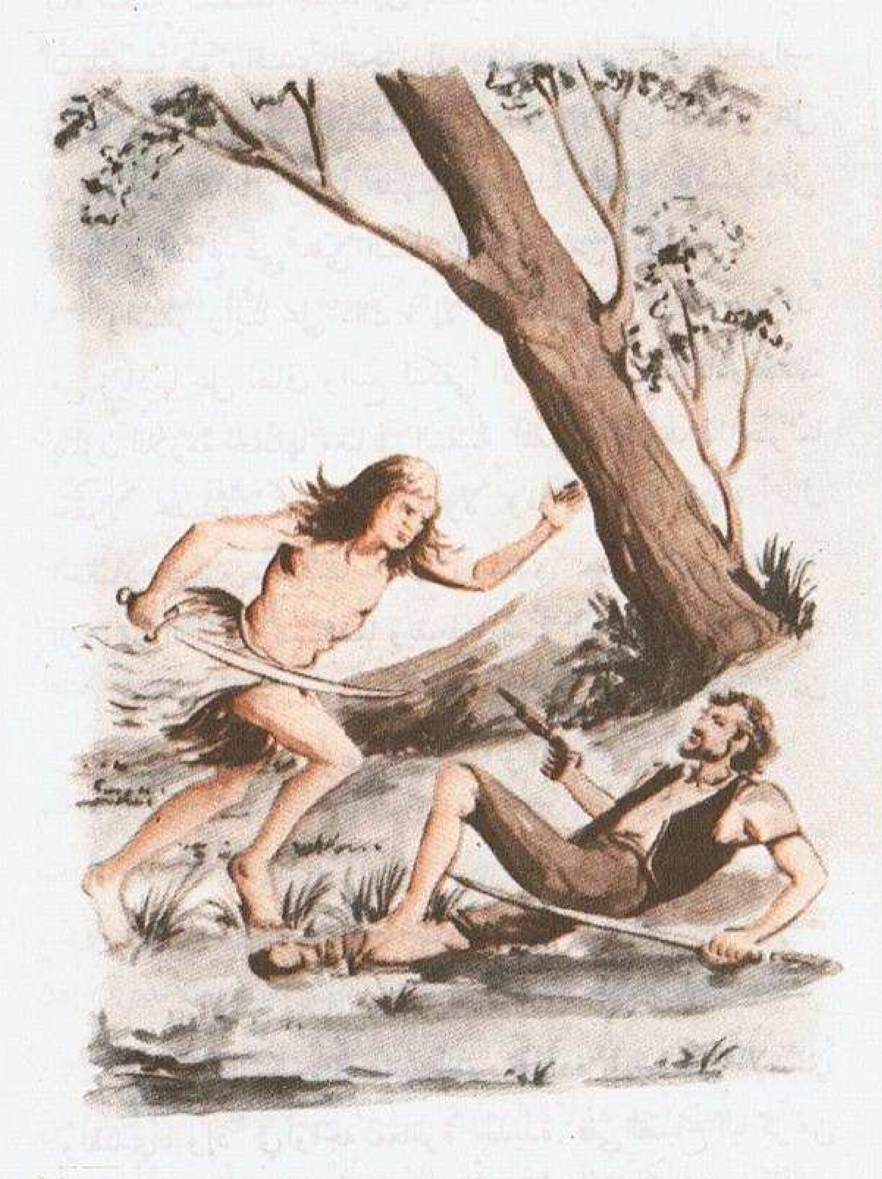
والواقعُ أن الهنديَّ العجوزَ كان على حقٍّ ؛ فقد علمْتُ ، فيما بعدُ ، أن الهاربين قد عادوا إلى أهلهم ، وتحدَّثوا إليهم بما جرَى ، فبثُّوا بحديثهم الرُّعْبَ في نفوس القبيلةِ الَّتي اعتقدتْ أنه ما من أحدٍ يقتربُ من هذه الجزيرةِ المسحورةِ إلا وتصعقُهُ نارُ السماء . ولكنْ بما أنني لم أكن أعرفُ هذه التفاصيلَ في تلك الأثناءِ فقد ظلَلْتُ مدةً طويلةً وأنا في غايةِ الحذَر .

وبَعْدَ أن مَضتْ مُدّةٌ ولم يظهرْ أيُّ قاربٍ على شواطئي ، رُحْت أتحدَّث عن مشروع الإبحار إلى القارّة . وقد أخبرني الإسبانيُّ أنَّه تركَ في القارّة ستةَ عشَرَ شخصاً من رفاقه الذين يعيشونَ في سلامٍ مع الهنود ، ولكنَّهم لا يجدونَ ما يأكلونه . وكان لديهم سلاحٌ ولكنَّه لم يعُدْ ذا فائدةٍ . لأنَّ الذخيرةَ قد نَفِدَتْ من أيديهم . قلت :

« وماذا فعلوا من أجل الخلاص ؟ ألم يُحاولوا ذلك ؟ »

فأجاب بأنهم بذَلوا عدّةَ محاولاتٍ ، ولكنَّها باءَتْ جميعُها بالفشل ، لأنهم لا يستطيعونَ أن يَبْنُوا مركباً بدون مُعَدّاتٍ ومُؤَنٍ .

وعرضْتُ عليه أن يأتيَ برفاقِهِ حتى نتعاونَ هنا معاً على



مشهد من مشاهد المعركة مع المتوحشين .

بناء سفينة تَنقُلُنا جميعاً إلى بلادنا . فأجابَ بأنَّهُ مُستَعِدٌ أن يذهبَ هُوَ والهنديّ العجوز إلى رفاقِهِ ويعودَ إليّ بالجواب وقال إنَّهُ لن يَعقِدَ مَعَهُمْ أيّ اتفاقٍ إلا متى أقسموا على أن يجعلوني ، أنا ، رئيساً عليهم . وقد بدأ بنفسِهِ فأقسَمَ على طاعتي والدفاع عني حتى النقطةِ الأخيرةِ من دمِهِ .

واستقرّ رأيُنا على ذلك ؛ إلا أنّ مواردَنا قليلة ، فلا بدّ من زيادتها على نطاق واسع لنكفيَ الأفواه التي ستأتينا ونحتفظَ بالمؤن اللازمة لحملها معنا في السفينةِ المقترَحة . وهكذا حرَثْنا حقولاً جديدةً ، وجنَيْنا محصولاً وفيراً . وبعد انتهاء أعمال الحصاد والتخزين . أذنْتُ للإسبانيّ والهنديّ العجوز بأن يركبا أحدَ الزورقين اللذَيْن كسبناهما ويقوما بالمهمّة التي أوكلتْ إليهما .

هذهِ هيَ الاستعداداتُ التي قُمْتُ بها للتخلّصِ من سجني بَعْدَ سَبْعةٍ وعشرينَ عاماً وعدّةِ أيام .

١٥ . إحباط تمرد

كنتُ أنتظرُ ، منذ ثمانية أيام ، عودةَ المندوبَين الإسبانيّ والهنديّ ، وإذْ بي أواجهُ مغامرةً جديدة . ففي الصباح الباكر من أحد الأيام ، دخل جمعةُ خيمتي ، وأنا ما أزالُ في الفراش ، وصاح :

« سيدي . سيدي ! هم يعود ، هم يعود ! »

وأسرعت إلى ملابسي فارتديْتُها ، واجتزْتُ الغابةَ جرْياً ، دون أن أحملَ سلاحي ، خلافاً للعادة ، لأنني لم أكن أتوقّعُ أيّ خطر . ولكنني فوجئت بأن هناك فلوكة ، على بعد نحو فرْسخٍ ونصف ، تتجه إلى الجزيرةِ آتيةً من الجنوب . فأمرت جمعةَ بألاّ يُحدِثَ أيّ ضجةٍ ، لأنّ القادمين ليسوا مَنْ ننتظر .

وفي الحال عُدْتُ فأخذْتُ منظاري وصعدْتُ فوق الصخرة . وما إن نظرتُ حتى رأيتُ ، بالاضافة الى الفلوكة ، سفينةً راسيةً في عُرْض البحر على بُعد فرسخَيْن ونصف تقريباً . وقد عرَفْتُ ، من بناء السفينة والفلوكة ، أنهما بريطانيّتان . لقد تملّكتني في تلك اللحظةِ مشاعرُ مختلفةٌ يختلط فيها الفرَحُ بالقلق والتوجّس .

كانت الفلوكةُ تبحثُ عن جوْنٍ تأوي إليه ؛ ولمّا لم تهتدِ إلى خليجي الصغير ، اندفعتْ نحوَ الرمال واستقرّتْ في مكانها . وعندما نزَلَ منها رُكّابُها عرَفْتُ أنهم مُواطنون . كانوا أحدَ عشرَ شخصاً ، ثلاثةٌ منهم مقيّدو الأيدي . إذن هم جماعة من المتمرّدينَ الذين يريدون التخلّص من رؤسائهم . وقد رأيتُ أحد هؤلاء البحارة يرفعُ سيفاً فوق رأس أسيرٍ من الثلاثة ، ولكنّهُ لم يضربْهُ إلا بصفحِهِ (أي بعرْضه أو

وجهه) ؛ وقد أجبره رفاقه على الابتعاد .

وشعرْتُ بشيء من الارتياح عندما فكَّ المتمرِّدون أيديَ الأسرى الثلاثة . ولكن هؤلاء كانوا مستسلمين ، فجلسوا على الرمال واليأس بادٍ على وجوههم . وذهبَ البحارةُ لاستكشاف الجزيرةِ تاركين اثنَيْن من رفاقِهما في حراسةِ الفلوكة . ولكنَّ الجزْرَ كان قد بدَأَ تاركاً الفلوكةَ على اليابسة . فنادى واحدٌ من الحارسَيْن رفاقَهُ . فلما عادوا حاولوا دَفْعَ فلوكتِهِمْ إلى الماء ، ولكنَّها كانت ثقيلةً . فقال أحدُهم : لنترُكْها حيثُ هي ، والمدُّ كفيلٌ برفعها ؛ وتولَّوْا عنها لمواصلة استكشافهم .

ولما كنتُ أعرِفُ أن الفلوكةَ لن تطفُوَ قبلَ الساعةِ العاشرةِ ليلاً ، فقد استقرَّ رأيي على الاَّ أبدأَ العملَ إلا متى حلَّ الظلام . وفي انتظارِ ذلكَ رُحْتُ أستعدُّ للمعركة .

ولكنْ ، في حوالَى الساعةِ الثانيةِ بعدَ الظُّهر ، والحرُّ على أشدِّهِ ، لاحظْتُ أن جميعَ المتمرِّدينَ قد ذَهَبُوا إلى إلى الغابة ، تاركينَ أسْراهم ، الذين استلقَوْا في ظلِّ شجرةٍ ، بعيداً عن أعينِ العُصاة . فقرَّرْتُ الا أنتظرَ ، واقترَبْتُ من الرجالِ الثلاثةِ وقلْتُ لهُمْ بالاسبانية :

« مَنْ أنتم أيُّها السَّادة ؟ »

فلم يُجيبوا على سؤالي ، بل همّوا بالفرار . فقلْتُ لهم عندها بالانكليزية :

« لا تَخْشَوْا شيئاً ، أيُّها السادة ، أرسلَتْ إليكم الأقدارُ صديقاً على غيرِ انتظار ! »

وفهِمْتُ منهمْ أنَّ أحدَهُمْ هُوَ قُبطانُ السفينةِ والثاني معاونُهُ والثالث هو أحد المسافرين ؛ وأنَّهُ حدَثَ تمرُّدٌ على السفينة من قِبَلِ البحّارةِ ضدَّ القبطان ، الذي كادوا يقضُونَ عليه ؛ وقدْ جاؤوا بالثلاثةِ إلى هذه الجزيرةِ الخاوية ليتركُوهُم فيها . كذلكَ فهِمْتُ من القُبْطانِ أنَّ اثنَيْن منَ المتمرِّدِيْنَ هما أخطرُ الجميع ، ولا سبيلَ إلى إصلاحِهما وردْعِهما .

وسألْتُهُ عما إذا كانوا مُسلَّحِيْنَ فأجابَ بأنَّ معهم بندقيَّتَيْن تركوا احداهما في الفلوكة .

قلت للقبطان : « إسمَعْ ، يا سيدي ! إنني سأجازفُ بكل شيء في سبيل تخليصِكَ ، ولكنْ على أساس شرطَيْن : الأولِ أن تكونَ تحت إمْرَتي ما دُمْنا في الجزيرة ؛ والثاني أن تنقلَني وعبدي إلى انكلترا ، بعدَ استعادةِ سفينتِكَ ، دون دَفْعِ أي تكاليف ! »

فأقسَمَ لي على ذلك ؛ وانتقَلْنا إلى العَمَل ، فأعطيْتُ كلَّ واحدٍ بندقيَّةَ فتيلٍ وكميَّةً من الرَّصاصِ والبارود . في هذه اللحظةِ رأيْتُ اثنَيْن من العُصاةِ ينْهَضان ويبتعدان ؛ فسألتُ القُبْطانَ عما إذا كانا هما المحرِّضَيْن ، فأجابَ بالنفي . وتقدَّمَ القبطانُ وأمامَهُ رفيقاهُ . وقد أحدثَ هذان

صوتاً ، فنهض أحدُ المتمرّدين ، وصاح برفاقه ينبّههم إلى الخطر . وكان هذا هو أحد المحرّضين . وهناك دوّى طلقان وقع على أثرهما المحرّض الأوّل قتيلاً ، وأصيب الثاني . فجرى القبطان وعاجله بضربة من عقب البندقية قضت عليه . وهنا ظهرت أنا ، فاستسلم جميع من كانوا هناك وأقسموا على إطاعة قبطانهم والعمل بإخلاص . فوافق القبطان على تأمين حياتهم على شرط أن يظلّوا مقيّدي الأيدي.

ولما قيّدناهم أرسلت جمعة ومعاون القبطان إلى الفلوكة ليحملا منها البندقية والمجاذيف وينزعا الأشرعة . وفي هذه اللحظة وصل ثلاثة من البحارة الذين كانوا قد ابتعدوا عن رفاقهم . ولما رأوا ما جرى عمدوا إلى الاستسلام ورضوا بأن تقيّد أيديهم .

ولما أصبح جميع المتمرّدين عاجزين عن القتال عدتُ بضيوفي إلى قصري حيث قدّمت لهم ما عندي من مرطّبات.

١٦. خلاص روبنسون

بعد أن استراح ضيوفي قلت للقبطان إنّ علينا أن نستولي على السفينة . ولكنّه ، مع موافقته على رأيي ، أبدى تخوّفه

من صعوبة العملية ، لأنّ البحّارة الباقين ، الذين يعلمون أنّ جزاءهم الموت إذا عادوا إلى انكلترا ، سيقاومون إلى النهاية . وقلت للقبطان إنّه لا بدّ أن يأتي بعض البحارة بالفلوكة الثانية عندما يرون أن رفاقهم قد تأخّروا . وقبل كلّ شيء يجب إعطاب الفلوكة الموجودة بين أيدينا .

وهكذا سحبنا الفلوكة حتى لا يلحقها المدّ وخرقتها بحيث يمكن إصلاحها من بعد . أما الأسرى فقد أخبرني القبطان أن اثنين منهما رديئان ، واثنين مشكوك في أمرهما ، أما الباقون فيمكن أن يسيروا معنا . وهكذا أرسلت الأوّلين إلى المغارة ، وقيّدت الاثنين المشكوك في أمرهما ؛ أما الآخرون فقد أقسموا على الإخلاص . وهكذا أصبحنا سبعة مسلّحين .

وفيما نحن منهمكون في ذلك سمعنا طلقة مدفع من السفينة . كان ذلك من البحارة بمثابة تنبيه لزملائهم الذين تأخّروا عن العودة . وتكرّرت طلقات المدفع ، ولا من مجيب . وما هي إلا لحظات حتى رأينا فريقاً من البحارة متّجهين إلى الجزيرة بالفلوكة الثانية ، كما توقّعت .

وعندما أصبحوا على مرمى منظارنا رأينا أنهم عشرة قال القبطان إن ثلاثة منهم رجال أشراف انجرّوا مع الباقين . ولما وصلوا إلى المكان الذي نزل فيه رفاقهم من قبل ،

جرّوا الفلوكةَ وغادروها . ووقَعَ نظرُهُمْ على الفلوكةِ الأولى ،
فتوجَّهوا إليها فوجدُوها مَخْروقةً ، ولم يَرَوْا أثراً لرفاقهم
فوقعُوا في حَيْرة شديدة ، وراحوا يُنادُونَ رفاقَهُمْ فلم
يُجِبْهُمْ غيرُ الصَّدى . فأطلقوا بنادقَهُمْ دفعةً واحدةً . فلم
يتلقَّوْا ردّاً . عندها قرَّروا العودةَ إلى السفينة ، ومغادرةَ هذه
الجزيرة الخطِرة ، التي لا بدَّ أن فيها متوحشين يريــدون أن
يتصيَّدوهم واحداً إثرَ واحد . ولكنَّهم ما إنِ ابتعدوا قليلاً
بفلوكتهم حتى عادوا مصمِّمينَ على التفتيشِ عن زملائهم .
وتَرَكوا ثلاثةً في الفلوكة ، ومضَوْا نحوَ الغابات . أما الثلاثةُ
فقد قادوا الفلوكةَ إلى الجُوْنِ حيث ربطوها بإحدى الأشجار .

وصَعَدَ السبعةُ إلى أعلى المرتَفَعِ وراحوا يصيحون ؛
ثم أفرغوا بنادقَهُمْ . ولما لم يتلقَّوْا جواباً ، تحادثوا مع بعضِهم
قليلاً ، ورأيناهم ينحدِرون نحوَ البحر . ويبدو أنهم خافوا أن
يتوغَّلوا أكثر من ذلك في الجزيرة .

ولما أصبحوا قربَ الشاطىء ، فكَّرْتُ في حيلة لاستدراجهم
إلى داخل الجزيرة . كلَّفْتُ جُمْعَةَ ومعاونَ القبطان أن يصيحا
من الطرف الآخر للجون حتى يسمَعَهما المتمردون فيتبعوا
الصوتَ ، ثم يدُوْرا من بَعْدِ ذلك ويكرِّرا الصياح ، وبعدَ أن
يَجِدْ با المتمرِّدين إلى داخلِ الغاباتِ يعودا من طريق مختصرة
حدَّدْتُها لهما . وهكذا حدَثَ فأوغَلَ العُصاةُ بعيــداً في

الغابات ، ولم يتمكَّنوا من العَوْدةِ إلا والظلام على وشك
الهبوط ؛ وكان قد انضمَّ إليهم أحدُ الثلاثة .

خلال هذا الوقت فاجأنا البحارَيْن اللذَيْنِ بقيا في الفلوكة .
فوجدْنا أحدَهما مستلقياً قربَ الشاطىء فعاجلَهُ القبطانُ
بعَقِبِ البندقيةِ فأرداه قتيلاً ؛ وصاحَ على الآخر الذي كان في
الفلوكة ، فإذا بهِ من الموالين للقبطان ؛ فانضمَّ إلينا .

ولما وَصَلَ المتمردون إلى الفلوكة وجدوها خاليةً مــن
الحَرَس ، وقد انسحبَتْ عنها المياه ، فأصبحتْ على اليابسة .
هنالك راحوا يتصايحون ويَرُوحون ويجيئون مذعورين . وكنا
في مكمنِنا القريبِ ننتظرُ أن يتفرَّقوا ، حتى نختصرَ إراقةَ الدماء
ولا نعرِّض أحدَنا للقتل .

وبالفعل انفصَلَ ثلاثةٌ وساروا في اتجاهنا ، وكان الظلامُ
قد أرخَى سُدوله . فصرَعَ القبطانُ أوَّلَهم ، وهوَ من الأشقياء
المحرِّضين ، وأصابَ الثاني إصابةً لقيَ منها حتفَهُ بعد ساعتين .
أما الثالثُ فاستسلم .

كان الظلامُ يمنعُ العُصاةَ من معرفة عدَدنا . فأمَرْنا الذي
استسلمَ من الثلاثة أن ينادي رفاقَهُ بأسمائهم ويَطلبَ إليهم
الاستسلام .

وصاحَ البحّار : « هيه توماس .. سميث ! »

وردَّ سميث : « أهذا أنت يا جونسون ؟ »

– « نعم ، نعم ! ألقُوا اسلحتكم واستسلموا ، وإلا فليس أمامكم سوى الموت .. العريف قُتِل وويليام جريح وأنا أسير ! »

– « وإلى من نستسلم » ؟

– « إلى القبطان » !

وهنا تدخّلَ القبطان وصاح :

« إنكم تعرفون صوتي ! ألقُوا أسلحتكم ، وعليكم الأمان ، إلا ويليام أتكنز الذي سينظر حاكم الجزيرة في أمره .. إنكم على أرض بريطانية ! »

هذا الكلام فعَل فعلَ السحر في البحارة فألقوْا سلاحَهُم وجاؤوا مستسلمين . وركَع أتكنز عند قدمَيْ القبطان يطلب إليه التوسُّطَ لدى « حاكم الجزيرة » ليعفُوَ عنه . وحاكمُ الجزيرة هو أنا بالطبع !

ولكي نكون مطمئنّين أرسلتُ أتكنز وبحاراً آخرَ ، من الخطِرين ، إلى المغارة ، واحتجزتُ الباقين في حَظيرَةِ المزرعة .

وطلبتُ من القبطان ، في اليوم التالي ، أن يختار خمسةً ممن يستطيعُ أن يعتمد على ولائهم ، لمساعدتِنا على استعادةِ السفينة . أما الباقون فيظلّون كرهائن .

وهكذا ارتفعَتْ قوّتُنا التي ستستولي على السفينة ، إلى

اثنَيْ عشَرَ رجلاً . أما أنا وجُمعة فلم يكن في استطاعتنا تَرْكُ الجزيرة . وقد أخبرَ القبطانُ جميعَ الأسرى بأنني مندوبُ حاكم الجزيرة . والحقيقةُ أنني مثّلْتُ هذا الدورَ أحسنَ تمثيل .

في منتصَف تلك الليلةِ استولى القبطانُ ومن معَهُ على السفينة ، بعد أن قُتِلَ القبطانُ المزيَّفُ الذي نصَّبَهُ المتمرِّدون.

وفي اليوم التالي عاد إليّ القبطانُ وهو يحمِلُ الهدايا ، ومنها كُسْوةٌ كاملة : من القبّعة حتى النّعل . وقال لي :

« أيُّها الصديقُ العزيز ، يا منقذي .. ها هي سفينتك .. إنها مِلْكُكَ ، ونحن وما نَملِكُ تحتَ تصرُّفِكَ ! »

لقد طغَتْ عليَّ الفرحةُ إلى درجة أنني لم أعُدْ أستطيعُ الكلام . وانهمرَتِ الدموعُ من عينيّ .. أحقاً أعود إلى بلادي بعدَ هذا النفي الطويل ؟!

تركْنا أشقى اثنَيْن ، من البحارة المتمرِّدين ، في الجزيرة ، بعد أن علّمتهما كيف يمكن أن يعيشا في المواقع التي انشأتُها . وركبنا السفينةَ يومَ ١٨ كانون الأول عام ١٦٨٦ ؛ فأكون قد قضَيْتُ في منفاي ثمانيةً وعشرينَ عاماً وتسعةَ عشَرَ يوماً .

وقد مَرَرْنا على أهل جُمْعة ، وقضَيْنا عندَهُمْ عدة أيام . واتَّفَقْنا مع البحارة الاسبانيينَ على أن يَحلُّوا مَحَلَّ البحارة الذين نَقَصُوا في السفينة .

ووصَلْتُ انكلترا ، بعدَ رحلةٍ مُريحة سعيدة ، يوم ١١ حزيران عام ١٦٨٧ . وبذلك أكونُ قد غِبْتُ عَنْ وطني خمسةً وثلاثينَ عاماً .

انتهى

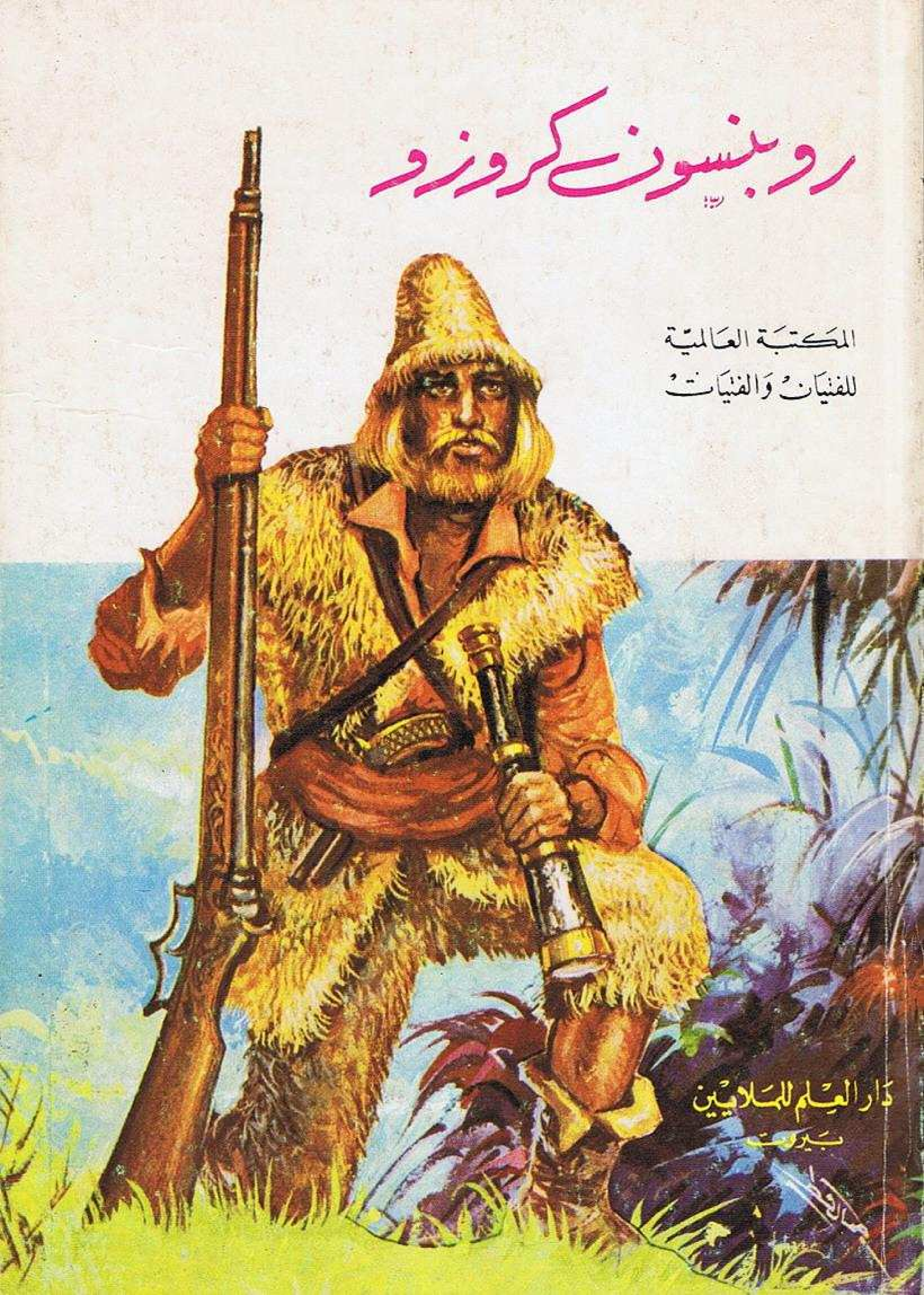
الفهرس

المكتبة العالمية للفتيان والفتيات

- سلسلة كتب جديدة للمطالعة تلبي حاجة الفتيان والفتيات في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة .
- اشرف على تلخيصها عن روائع الادب العالمي نخبة من كبار الكتاب العرب .
- اخراج جديد . لوحات بالالوان تجليد فاخر.

صدر منها :

١ ــ روبنسون كروزو
٢ ــ كوخ العم توم
٣ ــ آخر ايام بومباي
٤ ــ جزيرة الكنز
٥ ــ البؤساء
٦ ــ دايفيد كوبرفيلد
٧ ــ حول العالم في ثمانين يوما
٨ ــ قصة مدينتين
٩ ــ أوليفر تويست
١٠ ــ الزنبقة السوداء
١١ ــ القلعه
١٢ ــ مرتفعات ويذرنغ
١٣ ــ الفرسان الثلاثة
١٤ ــ آيفنهو
١٥ ــ دون كيشوت
١٦ ــ بائعة الخبز
١٧ ــ احدب نوتردام
١٨ طفل من غير اسرة
١٩ كولومبا
٢٠ تمرّد على السفينة باونتي


روبنسون كروزو
المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات
دار العلم للملايين
بيروت